



ربيع الأول سنة ١٣٢٧

وداع وعتاب

للسلطان السابق عبد الحميد

الله أكبر فالظلام قد علموا ... لأيّ منقلب يفضي إلا لي ظلموا
لقد هوى اليوم صرح الظلم وانتقضت ... أركانه وتولت أمهله النقمُ
وحصص الحق في عزّ وفي ظفرٍ ... يحفه خادماه السيفُ والقلمُ
ثارت له عصبةٌ كانت مشرّدةً ... وقد قددها الإرهاق والعدمُ
من كل أروع في حيزومة حتى ... في نفسه عزّة في أنفه شمُ
عبد الحميد استمع منهم مناقشةً ... فطالما صبروا بل طالما كظموا
غادرت أمتك المنكود طالعتها ... تغض مقلتها إن عدت الأممُ
أطلقت فيها سيوف الغادرين وقد ... كانت بجلك بعد الله تعصمُ
الله الله يا راعي القطيع فقد ... لاقت مصارعها في رعيك الغنمُ
هاتنا ما تنوء الراسيات به ... كيف الصنيع وأنت الخصم والحكمُ
فكم شكونا ولم نسمع شكابتنا ... وكم دعونا وحظ الدعوة الصمُ

ولي نعمتنا قل لي أما بطلت ... تلك الولاية لما ضاعت النعم
 فلو رفقت أمير المؤمنين بنا ... ما كان أنفث مصدر وسال دم
 محافظ الحرمين أعدل فهل آمنت ... في ظلمك الكعبة الزهراء والحرم
 أم حج حجاج بيت في دعة ... بدون أن يرهقوا فيه ويهتضموا
 وليته فاسقاً لم يرع حرمة من ... في ذمة الله ضاعت عند الذم
 كم استجاروا عليه فازدرت بهم ... إن لم تكن ناقماً فالله منتقم
 رب الهلال أجب هل كنت تمنحه ... ما اعتاد من نصرات ذلك العلم
 ماذا فعلت بأحرار البلاد وما ... جنوا على الدين والدنيا وما اجترموا
 حتى قسمتهم شطرين فازدحت ... على جسمهم النيران والرخم
 مزقت شملهم في كل ناحية ... فأرغموك بحول الله والتأمر
 ويا سلالة عثمان أما اتصلت ... منه إليك الصفات الغر والهمم
 أين الغطاريف أرباب العزائم من ... أسلافك الصيد من بالعدل قد عظموا
 شادوا لك العزة القعساء من قدم ... فجئت تدم ما شادوا وما رسموا
 كانت لهم دولة بالسيف ناهضة ... وفي زمانك لا سيف ولا قلم
 حصدت ما زرعوا فرقت ما جمعوا ... هدمت ما رفعوا بعثت ما نظموا
 ملكتنا فرأينا منك طاغية ... لم يدر ندأ له المشهود والقدم
 فيرون عندك أو فرعون قد غفرت ... زلاته واستحبت شاهها العجم
 حجاج عصرك بل تو لي العقاب بلا ... ذنب ومزأك عنه الجمع والنهم
 قد اخترعت ضروباً للمظالم والتكيل ما فطنوا فيها ولا حلموا
 خليفة الله قد خالفت ما أمرت ... به الشريعة والتريل والكلم
 وسيرة الخلفاء الراشدين بما ... خير المواعظ للظلام لو فهموا

ركبت مركب جوزٍ ليس يقبله ... من يخلفه في قومه الصنم
 دمرت بيتك يا هذا فأنت إذن ... عدو نفسك أو قد صدك اللمم
 حشدت زمرة غدارين كم سفكوا ... واسترفوا ثم لا قيدوا ولا غرموا
 المخلصون تولوا منك وانزموا ... والخائون على أبوابك ازدحموا
 أسرفت في نهب بيت المال فاستليت ... منه الجواسيس ما شاؤوا وما غنموا
 عصابة ثقلت في الناس وطأقم ... صموا عن الحق في أغراضهم وعموا
 اخترقم واختيار المرء شاهده ... يا ليتهم رفقوا بالخلق أو رجموا
 خانوك لما رأوا منك الخيانة في ... بنك والمرء موسوم كما يسم
 حبت آلك حتى بعضهم ملكوا ... كأننا لم تكن قربي ولا رحم
 حاولت إطفاء نور الحق وهو لظى ... تنور أفواهه إن سد منه فم
 طال الزمان على جور تعالجه ... وعيل صبر الوري واستحوذ السأم
 ضيقت دارهم في الأرض فاتعت ... والمرء مستبسل إن عضه الألم
 قد جمع الظلم منهم كل مفترق ... وشد ما استروا في الأمر واكتموا
 وكلما نام عنهم رهطك انبعثوا ... يدبرون وإن لاحظتهم جثموا
 وعند ما اكتملت الموثب عدقم ... توكلوا واستخاروا بالذي عزموا
 سلوا عليك سيف العدل مرهفة ... كأنها شهب في الأفق أو رجم
 شقوا بها جلابيب الدجى شفقاً ... بثت له الأرض وانجابت به الظلم
 وطالبوك بحق كنت هاضمه ... وحاكموك إلى البتار واختصموا
 فأدوا بأرواحهم حباً بأمتهم ... فلتحي تلك السجايا الغر والشيم
 قد كان ما كان والرحمان ناصرنا ... فالعدل متصرّ والجور منهزم
 دبرت فتنه سوء تسعيد بها ... من مجدك الباطل الغرار ما هدموا

مجد كبير طوته ظلمة كثفت ... ثم انجلت فإذا ما تحتها ورم
كروا بعزيمة حر جاء منتصراً ... لنفسه واستباحوا منك ما احترموا
فأنزلوك عن العرش الرفيع وما ... كانوا يريدونها لكنهم رغموا
تأبى الشريعة أن تبقيك حافظها ... وأنت بالعدو والإغواء متهم
فاليوم تعلم عقي من يخون ومن ... يطغى وتندم إذ لا ينفع الندم
هبطت من قمة الأجداد منحدرًا ... كصخرة حطها من شامق عرم
ففي هبوطك عاد الملك مرتفعاً ... وفيهلاكك كل الخلق قد سلموا
كانت بإقبالك الأقدار عابسة ... فأصبحت بعد ما أدبرت تتسم

دمشق: ف

السلطان عبد الحميد المخلوع

قلما جاء في الملوك من ترضيك أخلاقه وأعماله لضعف التربية الدينية والمدنية ولأن
الملك يسكر فيقتضي له عقل كبير يحسن به صاحبه التصرف ويراعي فيه حقوق الخالق
والخلاق. ولذا ندر في ملوك بني عثمان والملك متسلسل فيهم منذ زهاء ستة قرون من
تأهل بالفعل للجلوس على عرش السلطنة فقد رأيناهم وفيهم الأخرق والأحمق
والمتهك والمسررف على نفسه والسفاك ولكن لم يأت فيهم على التحقيق مثل السلطان
الخامس والثلاثين عبد الحميد الثاني.

نقول فيهم وما أخلقنا أن نقول في غيرهم من ملوك الإسلام بل وفي الأمم الأخرى
فقد تدبرنا تراجم ألوف من الملوك والعظماء ولم نشهد لعبد الحميد مثيلاً في أخلاقه
وأعماله. بل رأينا يشبه الناصر لدين الله العباسي بتجسسه وحرصه والحاكم بأمر الله
الفاطمي بهديانه وتلونه والحجاج بن يوسف الثقفي ببطشه وسفكه والسلطان إبراهيم

العثماني بسفامته وإسرافه. ومن جمع في شخصه هذه الصفات محمداً كان جديراً بأن يدعى طاغية الملوك والسلاطين.

تولى عبد الحميد زمام السلطنة وكيلاً عن أخيه مراد الخامس لمرض طراً على عقله وكتب على نفسه عهداً دفعه مدحت باشا ناشر أعلام الحرية في المملكة العثمانية ثم أرسل على ما يقال من أحرق دار مدحت باشا وحرق العهد في جملة ما حرق وأخذ يستجلب قلوب أهالي الأستانة مدة وكالته حتى اجتمع الصدر محمد رشدي باشا ومدحت باشا فقررا دعوة رجال الدولة إلى الباب العالي للنظر في توسيد السلطنة إلى عبد الحميد أصالةً فاجتمع نحو ألف شخص من الكبراء وقرروا أن جنون السلطان مراد مطبق لا يرجى أن يفيق منه فأفتى شيخ الإسلام بحل إمامته وببيع لعبد الحميد الذي أظهر أولاً بأنه يميل إلى الحكم الدستوري ومنح القانون الأساسي ثم سلبه وأقل مجلس الأمة وأتعب مدحت باشا في معاناة أخلاقه وكان أول عهد نكته معه أنه أخذ على نفسه أن يعين لرئاسة كتاب اميين نامق كمال بك الكاتب الشاعر الشهير وضياء بك رئيس المابينة فعين غيرهما ثم أخذ يلمس الدسائس ونفى مدحت باشا ثم أرسل به إلى الطائف فسجن في حبسها مدة ثم أمر بخرقه.

وأخذ السلطان يكثر من التصيق على أخيه السلطان مراد وعلى سائر أفراد الأسرة السلطانية ولاسيما ولي عهد السلطنة السلطان الجديد محمد خان الخامس الحالي ويشرد كل من عرف بالإنكار عليه من الوزراء والعظماء فألقى بذلك الرهبة في نفوس قواد المملكة ورجال سياستها فأصبحوا يسرون على رغباته وكل من خالفها ولو فيسره أقصاه وسجنه وعذبه وكلما مضت سنة على ملكه يزداد مراناً على هذه الفعال ويبالغ في الاحتياط لنفسه وغدا يتولى كل أمر بذاته ويعد أرباب الوجدان من رجال الدولة ويعيىض عنهم بأناس ممن يصطنعهم وما يصطنع إلا الأسافل من كل

جنس من أجناس الدولة لعلمه بأنهم يقادون بكل مبدأ في سبيل نصرته على الباطل حتى آلت أزمة الدولة في العهد الأخير إلى أيدي السفلة من أعوانه الجهلاء الطغاة إلا قليلاً.

وإذ كان مفطوراً على الطمع ويحسب أن المال يعمل كل شيء أخذ يملك الأملاك باسمه على خلاف عادة الملوك والسلاطين فكان كلما سمع بأن في إقليم كذا أراضي من أملاك الدولة يمتال لأخذها بلا ثمن إن كانت من الأملاك الأميرية أو بثمن طفيف إن كانت للأفراد ثم ألف الشركة الخيرية لتسير السفن في موانئ الأستانة وشركة أخرى لحسابه بين البصرة وبغداد وفتح في العاصمة مخازن لبيع البضائع ومعامل لصنع السجاد وغيره وضارب بالأوراق المالية وهكذا أصبح عبد الحميد تاجراً مزارعاً مضارباً لا يهتم بشيء من أمر الملك إلا إذا كان تقريراً من جواسيسه الذين كثروا في العاصمة والولايات كثرة ضاقت بما خزينة الأمة وكلهم أمتاؤه إن أخطأ وأفلهم الأجر وإن أحسنوا فحدث ما شئت أن تحدث عما ينهال عليهم من إنعامه وإحسانه. حتى لقد قلَّ جداً في عماله من لم يتجسس له لاسيما بعد أن رأى الناس أن الترقى في الوظائف لا يتأتى في الأغلب إلا من طريق الجاسوسية.

وهذا استنزول غضب عقلاء الأمة وأحرارها وكان كلما بالغ في الضغط عليهم واشتد في إرهابهم واعناقهم ينمو عددهم ينمو الميل إلى العلم. فكانت مدارس الدولة ولاسيما العالية منها على شدة المراقبة عليها لا يتصور العقل أكثر منها وعلى إصدار إراداته تترى لجعل المعارف صورية لا حقيقية — منعت تلك الشعلة التي قضت على استبداده الذي لم يكدهعهد له مثل في تاريخ الأمم فزحزح المتخرجون فيها أسس الحكومة المطلقة المدمرة وأقاموا مكانها على التقوى أسس الحكومة المقيدة المعمرة.

عرف عبد الحميد أن بالمدارس والمطبوعات تستنير العقول فيقل الراضون عن حكمه فأنشأ يضيق الخناق على المدارس حتى حظر أن يعلم فيها التاريخ وعلوم السياسة والاجتماع لأنها ترقى العقل وتلقح الأذهان وتدعو الأمة إلى سبل الرقي والأمان. ورات المطبوعات منه ومن أعوانه الجهلاء خصوماً يكفي في نعتهم أنهم أعداء كل فكر وارتقاء وتجديد حتى أصبح ما يطبع تحت السماء العثمانية في الثكنين الأخيرين من حكمه عبارة عن كتب خرافات وزهد وتلفيق أو أماديح كاذبة له ولأرباب المظاهر أو أموراً عادية لا ترقى عقلاً ولا تزيل جهلاً. ووصلت المراقبة على المطبوعات في أيامه إلى درجة من الهزل لم تصل إليها في أمة مغلوبة على أمرها فرفعت من المعاجم كثير من الألفاظ كالعدل والمساواة والقانون الأساسي والجمهورية ومجلس النواب والخلع والديناميت والقنابل وأصبحت الجرائد أبواقاً تضرب بتقديسه وتأليهه والعياذ بالله أو تكتب في التافه من الأخبار والأفكار. جرى كل هذا برأيه ورضاه لا كما يزعم بعض من يريدون أن يتفحلوا له الأعذار الباردة من أنها كانت من عماله ووزرائه وهو لا علم له بما يأتون.

كثرت في الأيام الحميدية أنواع المظالم وأصبح كلما طال عهده يشد في إعنات من يخالف له فكراً أو يعرض له في الإصلاح أمراً حتى صار بعض العقلاء من عماله يتظاهرون بالبله أو يقطعون عن الخدمة لأن سلطانهم لا يرضيه إلا أن يكونوا على قدمه في الظلم وارتكاب المنكرات. ولقد نصح به بعض سفراء الدول منذ بضع سنين أن يكف من شرور بعض العمال لأن استرسالهم فيها مما يسقط شأن المملكة ويضر بمستقبلها فقام لهم وماذا أعمل مع من ذكرتم وهم يجونني ويتفانون في خدمتي أي إنهم في حلّ من عمل ما أرادوا من العسف في الأمة ما داموا يظهرون له الحب ويخدمون أغراضه.

اشتهر عبد الحميد بالحقق الشقق والحرق الأكق والحقة المتاهة والاحتقال الذي بنطلى على ضعاف العقول فققولون أنه الدهاء والحكمة.

وكانت هذه الأخلاق باءة على قبل أن يلى أمر الأمر حتى قال نابوليون الثالث فله يوم رآه مع عمه السلطان عب العزقر ف باربر أن هذا الفتى سققء منه داهة باقعة فما هو إلا أن ققص الله له القلوس على سرقر آل عثمان حتى صحت فراسة نابوليون فله بل برز ف هذا المضمار.

كان السلطان عب القق عب ابنه مراداً أكثر من عب القق لأن هذا كان ببو على القبث منذ الصغر ولما ترعرع شرع بقجسى لعمه السلطان عب العزقر على أخوته وآل بته لبقال منه الإحسان وبقلرو فقشف عورات أخيه ما خاصة وكانت تقاربره للسلطان عب العزقر متصلة كتقاربر جواسسه ف عهد سلطنته ولطالما كدره السلطان عب العزقر على تشاغله بالسفاسف وقكفى ف ببا الفرق بب أخلاق السلطان مراد وأخلاق السلطان عب القق أن الأول كان بعنى ف صباه بالشعر والموسقى ودرس مءنة أوربا وتاريخها على قبن كان أخره لا هم له إلا درس السحر والطلسمات وضرب المنل وأخذ الفأل وققرب لذلك من المشاىخ والبله والدجالبن.

مضى ثلث قرن على الأمة العثمانة وهى تفنى ف سلطانها فناء جنون لا فناء عقل وقنت إذا خلوت حتى بقاصته وصنانهه بقحدثونك من تلاعبه وأخلاقه ما تسأل الله معه السلامة وتسجل على فسار أخلاقنا أكثر من فسار أحكامنا وأعمالنا وكل منهم بورا لك من أسباب اضطراره إلى الصبر على هذه القءمة ما هو العجب العجاب.

فبالأسراف ف مال الأمة استمال عب القق قلوب الأغمار ممن قزبوا بزى العلماء وهم جاهلون فكانوا بقذبون على الله والناس وبقكرون لهم من صفات سلطانهم ما هو الزور البحت وإذا فتح النصفون أفواهم بالنقء أسكتوهم وحرموا إنكار المنكر

عليهم. وبالجواسيس اطلع على الدقيق والجليل من نيات الأمة وما كان يهتم إلا للأمر الصغيرة ولاسيما ما كان منها معلقاً بشخصه أما عمران البلاد وترقية معارفها وصناعاتها وزراعتها وتجارتها فلم يكن لها قيد في سجل أعماله.

وكفى في عدم احتفاله بأمور الرعية وإصلاح البلاد أنه انسلخت عن جسم الدولة في أيامه المشؤومة بلغاريا والروم أيلي الشرقية ودوبروجه في رومانيا والجيل الأسود والبوسنة والمهرسك وانضمت بعض الألوية للصرب ولليونان تساليا وايروفارتا وفرنسا تونس ولروسيا القوقاس وباطوم وأردهان وقارص ونال الجيل الأسود استقلاله وانفصلت قبرص وكريت لو كادتا واحتل الإنكليز مصر وهكذا انفصل من جسم الدولة نحو ثلثها بعدد النفوس والعمران.

ماذا تعدد هذه الأمة من سينات الدور الحميدي وتزع سلطة الحكم من الباب العالي وكانت من قبل فيه على شيء من العقل والقانون وانتقالها إلى المايين يعث بمصاخ الأمة الخصيان والجواري والجواسيس والدجالون والمرتشون والمناقفون والمنطبعون بطابع السياسة الحميدية.

فقد كانت الوظائف والرتب والأوسمة ومظاهر التكريم تباع بالمزاد كما يباع العقار والدار ويقتنيها في الأغلب من لا يهمهم إلا حظوظ أنفسهم وإملاء جيورهم وبطونهم حتى هلكت البلاد ليغتنى عبد الحميد والمنفذون لرغائبه وافقر الفلاح والصانع وهما مادة حياة الوطن واغتنت تلك الطائفة الفاسدة من الموظفين الذين سماهم غلادستون كبير وزراء إنكلترا جماعة من اللصوص تألفوا في صورة حكومة.

ولكم كان عمال عبد الحميد سبياً في إهراق دماء الأبرياء وتزع روح الحياة الوطنية من الناس وما ننس لا ننس سياسة المايين في المذابح الأرمنية والحروب اليمانية والكربية وغيرها من الوقائع الأهمية التي ألقى بها السلطان الشقاق بين أبناء هذا

البيت الواحد وفرق مجتمع القلوب عملاً بالقاعدة الباردة فرق تسد ولو عقل جرى على قاعدة اعدل تسد.

نعم كانت المدارس منبعث تلك القوة التي قضت على السلطة الحميدية بل على السلطة الاستبدادية في السلطنة العثمانية. وناشئة الأمة الذين كان يحترهم السلطان المخلوع ويغويهم بالمال ويضعهم بالمراتب والرواتب هم الذين دبوا بسلطان العقل أسباب الانقلاب الأخير في المملكة وغلبوا سلطان الجهل فكان يوم ١٠ تموز الماضي مبدأ سعادة العثمانيين وتاج الأيام وغرة الشهور والأعوام.

كان الصدر محمود نديم باشا يقول للسلطان عبد العزيز أن بعض الوزراء يخوفونك بالأمة وما الأمة الأكمن تراهم يمشون هناك (وأشار إلى جماعة من فلاحى الأناضول) ومثلهم لا يميز ولا يعقل فاصنع ما بذلك فانهى الأمر بخلع ذاك السلطان وقتله. وكان أحمد عزت باشا العابد يحقر للسلطان عبد الحميد أمر الأمة ويزين له البطش ويقول له أن المسلمين لا يعرفون غيرك خليفة وسلطاناً ورباً صغيراً فاحكم فيهم بحكمك فهم عبيدك لا ينازعك في التصرف فيهم منازع الأحرار أفراد طائشون. صم أذنك عن سماع خيالاتهم ودعهم يعوون ولا يضر عواء الكلاب بالسحاب. أما حكومات أوروبا فأمرها إلى التفاضل إن اتحدت كلمتهن لأقبل لنا بدفعها وما دمن متخاذلات فنحن في مأمن. وهكذا جرى السلطان المخلوع في دوره الأخير على هذه السياسة الخرقاء فكانت سبياً في نزع السلطة الاستبدادية من يده يوم ١٠ تموز الماضي وانزاله عن العرش يوم ١٤ نيسان.

ينس الناس من الخلاص من جور هذا السلطان إلا بموته ولكن تلك النفوس الكبرية من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي التي احك معظم أعضائها بالأوربيين وبلادهم قطعة من أوروبا أثبت أن تضع ملك بني عثمان بالإهمال والتراكل فاضطرت عبد الحميد إلى

إعلان القانون الأساسي في الصيف الماضي مرغماً ولما لم تطب نفسه لما جرى وأنشأت تحدّثه بإعادة الدور السالف لتكون الأحكام طوعاً وأمره وفيه وهو الحاكم المتحكم في الأموال والأعراض والأرواح يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل أخذ يوقد نيران الفتنة بين الأمة ليقول لها وللأجانب أن العثمانيين لا يليق لحكمهم إلا الحكم الاستبدادي.

ثم احتال للتفريق بين عناصر الدولة أولاً وإغواء بعض الخونة من رجاله بالمال ليثروا دعوتهم فتألفت جمعيات عناصر بعد إعلان الحرية ولكل منها نزعاً خاصة. يريد الأرمين توسيع الاختصاص المأذونية أو الاستقلال النوعي بعبارة أخرى والعرب ينادون بأن الترك غمطوهم حقوقهم وهم يريدون أن يشاطروهم الوظائف أو يفصلون عن الدولة وبعض الأرناؤود يدعون إلى مثل دعوة الأرمين. ولما رأى السلطان أن الأمة انبثقت لرد هذه الترهات وقام العقلاء يحاربونها شرع يسلك سبيلاً آخر ويحرك عامة المسلمين باسم الدين بواسطة جمعية ألفها في الأستانة دعت نفسها بالجمعية الخمدية تطالب بالشريعة الإسلامية ولا تريد القانون الأساسي لأنه بزعمها مخالف للإسلام ومن قواعد الحرية والحرية ليست من شأن الدين الخمدي. وهكذا ألفت الجمعية فروع في الولايات فحج العامة باسم الدين وتربطهم بالسلطان وذلك على يد زعانف كان للمال الذي بذله تأثير عظيم في نفوسهم ونفوس الغرغاء.

كاد عبد الحميد لأتمه بتدبير الفتنة الخمدية بل بالفتنة العسكرية فعصت جنود الأستانة إلا قليلاً بما بذله لهم من الذهب والوهاب ولم ير أعوانه الذين أثاروا الجند واسطة لإضاعة رويتهم أحسن من إسكارهم فأسكروهم ليلة الفتنة وفرقوا عليهم الذهب الكثير الذي جمعه من دماء الفقير ليقوموا بالمطالبة بإعادة الشرع الخمدي أو يوقدوا نيران مذبحة عامة يقتل فيها أحرار الأمة أولاً ثم الأقرب فالأقرب من رجال الإصلاح

والتجديد ولو وفق عبد الحميد لاستعادة سلطته الاستبدادية وتمت له مكيدته الشيطانية لما هلك في هذه الفتنة الأهلية في أنحاء السلطنة أقل من مليوني رجل كما وقع في ثورة فرنسا الأولى.

ولكن الله أراد لهذه الأمة الخير وقيض لها من رجال الدستور والتفانين في الاحتفاظ به من كان إخلاصهم الداعي الأكبر في نجاحهم فقامت بعض ولايات الروم إبلي على ساق وقدم تطلب التطوع في الجندية للدفاع عن الدستور وهب جند الفيلق الثاني والثالث أي أدرنة وسلايك — ومنهما انبعث جذوة الحرية أول مرة — وزحفا في جموع التطوعة على الأستانة بقيادة البطل المغوار محمود شوكت باشا الفاروقي البغدادي فاستوليا على المواقع الحربية في العاصمة في أسبوع وقبضوا على المنتفضين والعصاة من الجند المشاغب وخلعوا السلطان عبد الحميد مدبر تلك المكائد بفتوى من شيخ الإسلام أثبت عليه فيها قتل الأنفس البريئة ومخالفة الشرع وحرق كتب الإسلام والإسراف في مال الأمة وبايعوا باتفاق مجلس النواب والأعيان لولي عهده السلطان محمد الخامس وساقوا ذلك الذي عبث بمصلحة العثمانيين إلى قصر الأتني في ضاحية سلايك ليحري عليه ما جرى على كل سلطان مخلوع خان أمته ودولته بدون أن يلحقوا به إهانة. فحتى للدولة والأمة أن تدعو بدوام نصر الجيش العثماني المظفر لأنه كان سب حياتنا اليوم ولطالما كان هذا الجيش سب رفع هذه الدولة العلية كما كان في بعض الأدوار سب خفضها.

أعلن جيش الدستور الأحكام العرفية أي عطلت القوانين الموضوعة وجعلت العاصمة تحت الأحكام العسكرية ريثما يستتب الأمر لجيش الفاتح محمود شوكت باشا ويفتك بمن أضعوا دينهم وديناهم بمسالاة السلطان المخلوع على رعايته فشتق كثيرون ممن كان لهم ضلع في تشويش نظام الأمة وإهانة العامة باسم الشريعة وحكم على بعضهم

بالأشغال الشاقة وعلى البعض الآخر بالنفي وهكذا تمت الغلبة لكلمة الحق على الباطل وكتب البقاء للحكم النيابي في السلطنة آخر الدهر إن شاء الله.

فكرنا ملياً في أمر عبد الحميد وأردنا أن نصفه في الترجمة فما رأينا له مزية يذكر بها ويرحم. بلى وجدناه حسوداً يحسد حتى خصيانه وأشق خبر يتراعى إليه أن يعلم بأن في إحدى أطراف مملكته عالماً ينفع الناس بعلمه فيحتال عليه ليأتي به إلى الأستانة ليدفنه حياً فإن لم يقدر فلا أيسر عليه من التقول عليه وتزوير حيلة للانتقام منه والحط من كرامته. وكان إذا عزّ لا يلحق غبارده ثمود وفرعون وإذا ذل وذله يكون للأدنياء غالباً ينسى منزلته ومقامه. وكان يلذه جداً أن يشهد الشقاق مستحكماً بين حاشيته ويلقي بينهم العداوة والبغضاء. وفي أيامه كثر اختلاف النساء إلى قصره حاسرات مترجات بدعوى أنه خليفة وللخليفة أن ينظر إلى المحارم ولا حرج عليه وعليهن ولهذا اخترع لمن وسام الشفقة. ولعل بعض من درسوا الأخلاق الحميدة عن أمم يكتبون كتاباً مفصلاً فيها ليقراً الأخلاف عن الأسلاف ما فعلته في ذلك المخلوع قلة التربية والعلم وفساد الفطرة والله أعلم.

في سالانيك

لقد سمعوا من الوطن الأينا ... فضجوا بالبكاء له حيا
 وناداهم لنصرته فقاموا ... جميعاً للدفاع مسلحين
 وتاروا من مراضهم أسوداً ... بصوت الاتحاد مزجربنا
 شباب كالصوارم في مضآء ... يرون وكالشموس منورينا
 سالانيك الفتاة حوت ثراءً ... يهيم فقضت عن الوطن الديونا
 لقد جمعوا الجموع فمن نصارى ... ومن هود هناك ومسلمينا
 فكانوا الجيش ألف من جنود ... مجندة ومن متطوعينا

تراهم فيه متحدين عزمًا ... وما هم فيه متحدين ديناً
 هي الأوطان تجعل في بنينا ... إخاءً في محبتها رصينا
 وتتركهم أولي أنف كبار ... يرون حياة ذي ذل جنونا
 وإن الموت خير من حياة ... يظل المرء فيها متكينا

* * *

مشوا والوالدات مشيعات ... خرجن وراءهم والوالدونا
 يقلن وهم من فرح براكٍ ... وهم من حزنهم متيسموننا
 على الباغين منتصرين سيروا ... وعودوا للديار مظفرينا
 ولا تبقروا الذين قد استبدوا ... وراموا كيدنا ونحورنا
 فإن لم تنقذوا الأوطان منهم ... فلستم يا بنين لنا بنينا
 فقد هاجروا على الدستور شراً ... بدار الملك كي يستبدونا
 هم الأشرار باسم الدين قاموا ... فعاثوا في المواطن مفسدنا
 فما تركوا من الدستور (شورى) ... ولا أبقوا لغنمته (طينا)

* * *

وكم قلن من قول شجيّ ... لهم فتركنهم متهيجينا
 ومذحان الوداع دنون منهم ... فقبلنا الصوارم والجفونا
 وما أنسى التي برزت وقالت ... وقد لفتوا لرؤيتها العيوننا
 إلا يا راحلين لحرب قوم ... لثام ضيعوا الوطن الثميننا
 خذوني للوغى معكم خذوني ... ممرضة لجرحاكم حنوننا
 وإن لم تفعلوا فخذوا ردائي ... به شدوا الجروح إذا دميننا

* * *

ولما جد جددهم استقلوا ... على ظهر القطار مسافرينا
 فطاروا في مراكبه سراعاً ... بأجنحة البخار مرفرفينا
 وظل الجيش صباحاً أو مساءً ... تسير جموعه متتابعينا
 فلم يتصرّم الأسوَح إلا ... وهم يربى فروق محبونا
 هنالك قمت مرتحلاً إليهم ... لأبصر ما أومل أن يكونا

* * *

وباخرة علت في البحر حتى ... حكّت بعبابه الحصن الحصينا
 يؤثر جريها في البحر إثرأ ... تكاد به تظن الماء طينا
 فتترك خلفها خطأ مديداً ... بوجه البحر يمكث مستينا
 ركبت بها على اسم الله بحراً ... غدا بسكون لجته رهينا
 فرحنا منه نظر في جمال ... يعز على الطبيعة أن يهونا
 ومرأى البحر أحسن كل شيء ... إذا ليست غواربه السكونا
 كأنك منه نظر في سماء ... وقد طلعت كوكبها سفينا

* * *

أتينا دار قسطنطين صباحاً ... وقد فتحت لهم فتحاً مينا
 وظل الجيش جيش الله يشفي ... بحد سيفه الداء الدفينا
 فأرهمق أنفوس الطاغين حتى ... سقامهم من عدالته المنونا
 ورد الخائنين إلى جزاء ... أحلهم المقابر والسجوننا
 وحطوا قصر يلدز عن سماء ... له فالنخط أسفل سافلينا
 وأصبح خاشع البنيان يبغي ... عيوناً عن تطاوله عمينا
 خلا من ساكنيه وحارسيه ... فلم تر فيه من أحد قطينا

هوى عبد الحميد به هويًا ... إلى درك الملوك الظالمينا
 ونزل عن سرير الملك خلعاً ... وأفرد لا نديم ولا قرينا
 فسبق إلى سلانك احتباساً ... له كي يستريح بما مصونا
 ولكن كيف راحة مستبد ... غدا بديار أحرار سجيننا
 يراهم حول مكة سياجاً ... ويعجز أن ينم لهم عيوننا
 وموت المرء خير من مقام ... له بين الذين سقوه هوننا

* * *

لقد نقض اليمين وخان فيها ... فذاق جزاء من نقض اليميننا
 وقد كانت به البلدان تشقى ... شقاءً من تجرد مهينا
 فكم أذكى بما نيران ظلم ... وكم من أهلها قتل المتينا
 وكان يدبر من سفه رحاها ... بحجعة ولم يرها طحيننا
 وقد كانت به الأيام تضي ... شهوراً والشهور مضت سنينا
 ولا ضاق صدر الملك يأساً ... وصار يردد الوطن الطنوننا
 وأضحى سيف قائده المقدى ... على الدستور محققاً أميننا
 حماد من العداة فكان منه ... مكان الليث إذ يحمي العريننا
 وأسقط ذلك الجبار قهراً ... وأنياد بصارمه اليقينا
 فقرت أعين الدستور أمنناً ... وشاهت أوجه الثمردينا

معروف الرصافي

الجباية في الإسلام

الصدقات ورسم التعداد

لما كانت الحكومة معاهدة بحفظ راحة الأمة وحياتها ومالها وعرضها حتى لها أن تأخذ من الأمة أجرة خدمتها وقياسها بما تعهدت به نحوها باسم ضرائب وتكاليف أميرية غير أن الحكومة المطلقة كحكومتنا قبل إرجاع الدستور إلى أحكامه اعتبرت الضرائب من حقوقها الاستعبادية وعلى ذلك بنت قواعدها واستحلت أي ضريبة كانت وإذا أزيلت ضريبة من ضرائبها تأخرت واعتبرت عملها كرمياً منها على الرعية وكانت الأراضي يومئذ تعد من جملة الغنائم التي غنمها السلاطين والأمراء ولذلك ادعت الحكومة العثمانية أن جميع الأراضي ملك لبيت المال إلا ما كان ملكاً صريحاً فقسمت الأراضي على خمسة أنواع وهي أراضٍ مملوكة وأراضٍ موقوفة وأراضٍ أميرية وأراضٍ متروكة وأراضٍ موات.

فأما الأراضي المملوكة فهي التي يتصرف بها مالكيها كيفما شاء فيبيعها ويقفها ويرهنها ويوصي بها ويحولها إلى بناء ورياض وكروم من غير أن يستأذن فيها أحداً وتجري عليها أحكام الشفعة وغيرها من أحكام الملك وهي على أربعة أنواع: النوع الأول العريصات في القرى والأراضي التي عدت من تمة السكنى. النوع الثاني الأراضي التي أفرزت من الأراضي الأميرية وجعلت ملكاً صحيحاً على أنواع وجود الملكية الصرفة وبني تملكها على المساغ الشرعي. النوع الثالث الأراضي العشرية. النوع الرابع الأراضي الخراجية فرقة هذه الأراضي الأربعة بملك مالكيها وهي كالأموال والعروض يرثها الورثة الشرعيون وتوقف وترهن وتجري عليها الهبة والشفعة وسائر أحكام الملك كما هو مصرح في جملة الأحكام الشرعية والكتب الفقهية.

وأما الأراضي الأميرية فهي التي أحييت وفرضت للأشخاص على شروط أن تبقى رقبته لبيت المال كالأراضي والمروج والمحال التي يقال لها بإطلاق منزل صيفي وقيشلاق منزل شتوي والخراج التي تركت للاحتطاب والمراعي أما المنازل الصيفية

والمنازل الشتوية والغابات والمراعي والبيادر التي تركت لقرية أو قرى متعددة أو قصة فهي من الأراضي المتروكة.

وأما الأراضي الموقوفة فهي قسمان القسم الأول الأراضي المملوكة التي وقفت على الوجه الشرعي ويقال لها أوقاف صحيحة فجميع أحكامها تابعة لسرط الواقف والقسم الثاني الأراضي المفززة من الأراضي الأميرية التي وقفها السلاطين العظام أو وقفت بإذن سلطاني فهذه كالأراضي الأميرية في جميع أحكامها ولم يمش الوقف إلا على أعشارها ومنافعها الأميرية.

وأما الأراضي المتروكة فهي قسمان القسم الأول: الأراضي التي تركت للناس كافة كالطريق العام والأسواق والمرافئ والمساجد والمتزهات والميادين العامة. والقسم الثاني الأراضي التي تركت لأهالي قرية أو قصة أو لعامة الأهليين في القرى أو القصبات المتعددة كالمراعي والمنازل الصيفية والمنازل الشتوية والحراج للاحتطاب.

وأما الأراضي الموت فهي الأراضي الخربة التي لم تحرت ولم تزرع وبعيدة عن أقصى العمران.

ولو نظرنا قانون الأراضي ومعاملات الطابو وما تجري عليه المعاملات لوجدنا الحكومة العثمانية تدعي أن جميع الأراضي الخراجية والعشرية والأميرية والوقفية (ما عدا الأوقاف الصحيحة والأراضي المملوكة) والمتروكة والموات كلها ملك بيت المال وليس لتصرفها إلا التصرف بما والانتفاع منها غير أنها سمحت بتناقلها على حسب قانون الانتقال ولم تحدد مدة التصرف والانتفاع بما فأمنت على عمرانها ولهذا الأسباب عدت الأعشار وضرائب الأملاك أجرة أراضيها وأملاكها لا أجرة خدمتها للشعب وعلى هذا النظر أنشأت القواعد والقوانين على أن أكثر البلاد وأخص

بالذكر منها سورية لم تفتحها الحكومة العثمانية عنوةً بل إن أهلها استقبلوا السلطان
سليماً بالترحاب وأقروا له بالملك لما كانوا يرون من ظلم ملوكها حينئذٍ.

ولقد أُنبت في المقدمة أن مؤسس الدولة الإسلامية لما فتحوا البلاد وصالحوا أهلها
تركوا الأراضي بأيديهم واقتصروا على الخراج أجرة القيام على ذمتهم ومن هنا
يتضح أن الأراضي السورية والعراقية أراضٍ خراجية أي من الأراضي المملوكة إلا ما
ملكه غزاة المسلمين في صدر الإسلام وتقاسموا أيام الفتح الإسلامية وبعد رسول
الله صلى الله عليه وسلم وقيل أن السبب في جعلها أراضي أميرية لأن أصحابها ماتوا
بلا وارث وأصبحت محلولة فملكها بيت المال وجعلها أراضي أميرية على أن العاقل
يستبعد موت أهالي العراق قاطبة وأهالي سورية طراً وما شاكلهما عن غير وارث
يرثهم فتعدو الأراضي محلولة بأجمعها ولم يكتب لنا المؤرخون عن ذلك شيئاً ولذلك
أعتقد أن أراضي سورية والعراق وما شاكلها من الأراضي الخراجية أراضٍ مملوكة
يجب أن تكون ملك صاحبها ولا يسعني التفصيل هنا لنلا أبعد عن الموضوع وسبب
ذكر أنواع الأراضي فهيداً لجرح ما قيل من جواز أخذ الضريبة عن المواشي.

وذلك أن الحكومة العثمانية لما كانت مالكة لرقبة الأراضي والغنم والدواب ترعى في
بقعة من تلك الأراضي التي تبت عشياً وإن محصول الأراضي الأميرية تدفع العشر من
محصولها غير أن الشب تأكله الدواب وأن الدواب تضر ولها ريع وثمرها وريعها
يتوقفان على الرعي فقد لزم أخذ عشر العشب ضريبة على المواشي وعليه رفع العشر
ومنعت الضرائب عن المراعي على أن المراعي والبيادر والخراج المتروكة للاحتطاب
ومحال الأسواق والطرق العامة عدت من الأراضي العمومية المتروكة للرعية التي لا
يجب أخذ ضريبة عنها إلا ما كان مقيداً بالدفتري الخاقاني بأن يدفع ضريبة وما كان من

الأماكن التي تعد بإيلاً أو قيشلاً وخصص لقرية أو قرى متعددة فتؤخذ على ذلك ضريبة يقال لها إيالية وقيشالية بحسب قانون الأراضي.

بيد أن المواشي التي ترعى في المراعي العمومية والتي لم تكن عليها ضريبة والتي ترعى في المنازل الصيفية والمنازل الشتوية وما شاكلها بل حتى التي ترعى في أراضي صاحبها تدفع ضريبة العداد وقيل أيضاً لما كان تعيين عشر العشب صعباً رأوا أن يؤخذ العشر من رعى الأرض بصورة ضريبة على المواشي فجعلوا في بادئ الأمر رسم العداد عشر الدواب أي نعجة عن كل عشر نعاج أو شاة عن كل عشر شياه فلوا ردنا أن نعرف ضريبة المواشي على حسب هذه الفصائل لقلنا أنها عشر العشب غير أن السبب الحقيقي في أخذ هذه الضريبة غير ما ذكرناه لأن الأصل في دعوى ملك الأرض فاسد وعلى ذلك يكون الفرع فاسداً.

ولما كانت الحكومات تحمل الأمة ما تحتاج إليه من نفقة وتأدية ديون وأرادت أن توزع تلك النفقات والديون على ضرائب متنوعة ليخف حملها على الأمة جعلت على المواشي قسماً بدعوى أن المواشي وأصحابها تستفيد من خدمة الحكومة في حفظها من الغارة والنهب وإليك التفصيل:

لو كان لرجل أرض لا تعادل قيمتها أكثر من ألف قرش وليس عنده سوى عشرين رأساً من الماعز وحسبنا ما يدفعه للحكومة سنوياً حسب الجدول الآتي لبلغ مجموع ما يدفعه ستمائة وثمانية وثلاثين قرشاً صحيحاً.

الجدول

غروش

٠١٠ خراج أرض إذا كان متساهلاً معه

٠١٢ خراج الدار

٢١٢ عشر الأراضي إذا كانت مقبلة

١٠٨ رسم تعداد الماعز مع ورق طوابع

٥٥٠ رسم كمرك ملابسه وملابس عائلته

١٦٠ بدل طريق

١٠٠ رسم باج بقر أو خيل

١٠٠ إعانة غير مقننة على الأقل

٥٥٠ مختارية للمختار

٥٥٠ رسم دخان إذا كان يدخن دخاناً مهرباً

١٠٠ ورق طوابع

٦٣٨ مجموع

فلر أضفنا مقدار الربا والفرائض الفاحشة التي يدفعها صاحبنا هذا لعلنا السر في بقائه مديناً أبد الدهر وإن أرادت الحكومة أن يأخذ من كل فرد من الرعية ما أصابه فقلو طلبت من صاحبنا هذا مثلاً (٦٣٨) قرشاً دفعة واحدة لطار عقله وصرف ذهنه إلى الامتناع واستعد للعصيان وإذا استعدت النفوس لذلك قامت في وجه الحكومة وشقت عصا الطاعة ولكن لما كانت هذه الضرائب موزعة بين أن تؤخذ من الأفراد مباشرة تحت أسماء متنوعة وبين أن تؤخذ بالواسطة كرسوم المكوس كمرك والدخان والملح فلا يشعر بتقلها أحد وهذه الحكمة في أخذ ضريبة المواشي ولهذا تؤخذ هذه الضريبة تحت اسم خدمة الحكومة لحفظها من التعدي والنهب والسلب وهذا ما أصاب المواشي من نفقات الحكومة وديونها وبعد ذلك أرى أن المراعي والأراضي لا للحكومة لأن الحكومة هي الأمة فلا فرق بين الأمة والحكومة والخزينة هي خزينة الأمة ويظهر مما تقدم أن للحكومة أن تطرح ضريبة على الماشية.

بقي علينا أن نبحث في كيفية تلك الضريبة لتكون عادلة:

سمى الإمام أبو يوسف رضي الله عنه الضريبة المذكورة بالصدقات أي الصدقة في المواشي فقال سمعنا حديثاً عن الزهري عن سالم بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب كتاباً في الصدقة فقرنه بسيفه أو قال بوصيته فلم يخرج به حتى قبض صلى الله عليه وسلم فعمل به أبو بكر حتى هلك ثم عمل به عمر قال فكان فيه في كل أربعين شاة شاة إلى عشرين ومائة (٤٠ - ١٢٠) فإذا زادت فشاتان إلى مائتين فإذا زادت فثلاثة شياة إلى ثلاثمائة فإذا زادت ففي كل مائة شاة شاة وليس فيها شيء حتى تبلغ المائة وفي خمس من الإبل شاة وفي عشر شاتان وفي خمسة عشر ثلاث شياة وفي عشرين أربع شياة وفي خمس وعشرين بنت مخاض إلى خمس وثلاثين فإن زادت ففيها ابنة لبون إلى خمسة وأربعين فإن زادت ففيها حقة إلى ستين فإن زادت ففيها جذعة إلى خمس وسبعين فإن زادت ففيها بنتا لبون إلى تسعين فإن زادت ففيها أربعين بنت لبون ولا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع اهـ

وعن علي رضي الله عنه وإبراهيم النخعي وأبي حنيفة أنه إذا كثرت الإبل ففي كل خمسين حقة وكذلك الغنم عنه إذا كثرت ففي كل مائة شاة شاة وليس في أقل من ثلاثين بقرة من البقر السائمة شيء فإذا كانت ثلاثين ففيها تبع جذع إلى تسع وثلاثين فإذا كانت أربعين ففيها مسنة فإذا كثرت ففي كل ثلاثين تبع جذع وفي كل أربعين مسنة ولعل معاذ في اليمن مثله وأما الخيل فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عفوت لأمتي عن الخيل والرقيق وقال أبو يوسف قد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نقله إلينا رجال معروفون أنه قال تجاوزت لأمتي عن الخيل والرقيق وقال عن سفیان بن عینة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال تجاوزت لكم عن صدقة الخيل والرقيق وقال أبو يوسف فأما الإبل والعوامل والبقر العوامل فليس فيها صدقة

وشرط أبو يوسف في أخذ الصدقة شروطاً فقال وأما ما يؤخذ في الصدقة من الغنم فلا يؤخذ إلا التي فصاعداً ولا تؤخذ في الصدقة هرمة ولا عمياء ولا عوراء ولا ذات عوار فاحش ولا فحل الغنم ولا الماحض ولا الحوامل ولا الربى وهي التي معها ولد تربيته ولا الأكيلة وهي التي يسمنها صاحب الغنم ليأكلها ولا جذعة فما دونها فإن كانت فوق الجذع وما دون هذه الأربع أخذها المصدق وليس لصاحب الصدقة أن يتخير الغنم فيأخذ من أختيارها ولا يأخذ من شرارها ولا من دونها ولكن يأخذ الوسط من ذلك على السنة وما جاء فيها ولا تؤخذ الصدقة من الإبل والبقر والغنم حتى يحول عليها الحول والمعز والضأن في الصدقة سواء.

فتبين مما تقدم أن الشارع عليه الصلاة والسلام نظر في قيم المواشي الحقيقية وإيرادها الحقيقي لتكون الصدقة متناسبة مع الإيراد الحقيقي ثم إن الصدقة (أو رسم التعداد) هي شرعاً واحد من أربعين أي اثنان ونصف من مائة فلو نظرنا إلى ربيع الغنم وربع البقر وربع الإبل وحسبنا الصدقات لم نجد تفاوتاً بين قيم الصدقات مثلاً فقد جعل عليه السلام شاة على الأربعين شاة وشاة على الخمسة من الإبل المتوسطة بحسب السوق نحو الأربعين ليرة فتكون الصدقة في الإبل والضأن ليرة من أربعين على أن الشارع لم يأخذ الصدقة من دون الأربعين شاة والخمس من الإبل رحمة بالفقراء. أمـ وأما رسم التعداد النظامي الذي قام مقام الصدقات الشرعية فقد كان من قبل واحداً من عشرة ثم انقلب إلى الرسم فصار أربعة قروش صحيحة عن كل دابة من معز وضأن فإن كان عند رجل مائة وعشرون رأساً من الضأن وجب عليه دفع أربع مائة وثمانين قرشاً صحيحاً رسم تعداد وتسعة وعشرين قرشاً صحيحاً ونصفاً للتجهيزات العسكرية وقرشاً صحيحاً ثلث ورقة سكة حجاز ونصف قرش ثلث طوابع فتبلغ الصدقة عن المائة والعشرين رأساً (٥١١) قرشاً صحيحاً أي نحو خمس ليرات ونصف ريال

مجيدي وأما الصدقة الشرعية في هذه المائة والعشرين فهي شاة متوسطة لا تعادل قيمتها ليرة فصار رسم العداد ستة أضعاف الصدقة الشرعية في الضأن وأما الماعز فعلى المائة وعشرين رأساً منها كذلك (٥١١) قرشاً صحيحاً وهذا بمقام شاة من الماعز المتوسط وثن الماعز المتوسط لا يتجاوز الثلاثة ريالاً أي ٥٧ قرشاً صحيحاً فيكون رسم العداد عشرة أضعاف الصدقة في الماعز وهذا منتهى الظلم فقد اتضح لنا أن الفرق بين الصدقة الشرعية والضريبة الرسمية عظيم جداً وكنا ذكرنا في المقدمة أنه يجب على الحكومة أن تستوفي رسم العداد عندما يكبر نسلها ويبيعه صاحبها ليدفع الرسم من ريع ماله غير أن القانون الجاري حتى الآن يجبر أصحاب المواشي على دفع الضريبة في آذار أو نيسان أو قبل آذار حينما تكون الخراف والحملان صغيرة لا تباع فيضطر صاحب المواشي إلى الاستدانة بأرباح فاحشة فيكون تحمل الضريبة مضاعفة ضريبة العداد وفانضها فيصبح رسم العداد عشرين ضعفاً من الصدقة الشرعية وهذه الضريبة الفادحة دفعت الأهالي إلى الاحتيال وتهرب الغنم والماعز لأنهم استكثروا الرسوم واعتقدوا أنها ظلم صراح لا صدقة شرعية فأثار هذا التهريب طمع القانتسقامين والتصرفين ومأموري المال فصاروا يبيعون مأموريات العداد بدراهم معدودات ولا يخفى على أوبي البصيرة أن مأمور العداد الذي لا تزيد أجرته على أربعمائة قرش لا يدفع خمسين ليرة من أجل أن ينال تلك الوظيفة إلا إذا كان يعتقد تحصيل مائة ليرة والمائة لا تؤخذ إلا من أفراد متعددين فيضيع على الخزينة أكثر من مائتي ليرة وعلى ذلك فقس المملكة بأجمعها تجد الحكومة قد أضاعت مبالغ تعادل ما أخذته فوق الصدقة الشرعية ولم تربح إلا شيئاً قليلاً غير أنها حملت الأمة أثقال الضرائب والظلم هذا إذا صرفنا النظر عما يذبحه الموظفون من الخراف فتخسر الأمة مبالغ غير مشروعة بسبب انحراف الحكومة عن أحكام الشريعة انحرافاً كلياً.

ولما كانت القاعدة المشثومة تزيد واردات الخزينة بأي صورة كانت من أجل أن تصرف على بذخ الظالمين في الأستانة وكان بعض القائمقامين والمتصرفين يخشون النقص عن البدل السابق أنشأوا يضيقون على مستخدمي العداد ليأتوا بزيادة الواردات يحملون الفقراء العاجزين ما ينقصونه عن الأغنياء فتبلغ ضريبة أغنام الفقراء أضعاف أضعاف ضريبة أغنام الأغنياء وأرباب السطوة والصولة ولهذا فقد نقص رسم تعداد الأغنام على توالي الأيام نحو أربعمئة ألف ليرة في المملكة كما أنه قل الخير وهجر الغنم أصحابها وقل اعتناؤهم وقلت المواشي فارتفعت إبان اللحم والسمن وضاق أمر المعاش.

ولو نزلت الضريبة إلى حد الصدقات وفرقت الحكومة بين الضان والماعز وعدلت في رسم تعداد البقر والإبل المسومة لتفس الأهالي وهانت عليهم الضريبة واعتقدوا أنها فرض ديني فلا يخفون ولا يهربون مواشيهم بسبب قلة الضريبة وأداء الفريضة فحينئذ يرغب الناس في تكثير الغنم والماعز وإصلاحها لكثرة ريعها ووفرة أرباحها فيكثر السمن والصوف والشعر فهل المواد الصناعية الابتدائية ويخرج ذلك إلى الممالك الأجنبية فتستفيد الخزينة من تمنع التجار والصناع ورسم الكرك (المكوس) ويرخص السمن واللحم فتسع على الناس معاشيهم وتقوى على العمل أجسامهم وقد وقفت عند هذا القدر ريثما يتم النظام الجديد وسأعود إلى البحث إذا دعت الحاجة والله الموفق.

شكري العسلي

ضراء العلماء

بين هذا الجيل الناشئ نَفراً لم يكتب لهم الوقوف على حضارة المشرق وآدابه بل غاية ما وصلت إليه أفهامهم من البحث والتدقيق أخذهم بغشاء العلوم الغربية الحديثة فقط فراحوا وهم ثملون بمخالة تلك الشماله يهرفون بما لا يعرفون زاعمين أن المشرق وحده منبعث الأعمال البربرية كما أن البعض حتى من علماء المغاربة يصورون الشرقي ذلك الغر الجرد والعربي ذلك الذي يخوض بحاراً من رمال محرقة وأشعة الشمس المذابة قطراقاً تتصعب عليه فتصهر رأسه في فضاء صحاري جرداء تكاد لا تتناهى . . .

ولو قمياً لذلك العربي ما قمياً للغربي من التربية والبيئة (المحيط) وتكاثر الوسائل والوسائط ما كان مدعاةً للتأثير في أخلاقه وأفكاره وخيالاته وقوته العقلية وطبيعته الحيوية الخ. . . . لاستعاض عن ظلال الخيام التي كان يستحضر في زواياها بدور الكيمياء ذات البيان الضخم والمعامل الكبيرة ولكانت له ضفاف الأهمار مباءة يتفيؤ ظلالمها الخضراء.

ولقد رأينا العرب لما اختلفت عليهم مثرات التربية والبيئة وأنشأوا يدوحن الممالك ويمصرون الأممصار أمة ناهضة بلغت في التحضر والتمصر شأواً بعيداً وضربت في المدنية والعمران بسهم وافر. ونبع بين ظهرائهم من الدهاق من ألفوا في العلم والاجتماع والأدبيات على اختلاف ضروها فبرز الكندي وجابر الكوفي والطوسي وابن رشد وابن سينا والفارابي وابن أبي أصيعة والسمرقندي في الرياضيات والطب والفلسفة والغزالي والرازي وابن حرم وابن باجة وابن خلدون والمني والمعري في الاجتماع والتاريخ والأخلاق والشعر وأخذ العظماء من الأمراء يسرفون في إنشاء معاهد العلم في بغداد وسمرقند والشام والأقطار الأخرى وعهدوا وظيفة التحليم إلى من تأقت شهرتهم في العلم في ذلك العصر مما يدل على نمضة علمية كبرى نشأت في

المشرق بقي من آثار القانين بها أطلال بالية ومن نتائج قرانهم بقايا ملئت بها
مكتبات المشرق والمغرب على كثرة ما عداها من عوادي الأيام.

ألا وإن الأمم تسير في تقدمها وتأخرها على نواميس عامة قد لا تختلف في الغالب إلا
بقدر الاستعداد الفطري وتأثير الإقليم. وما يصح أن يقال عن تلك الأمم من الأعمال
البربرية أن هو إلا أمر طبيعي لا بد من وقوعه بين أي شعب أسفً للانحطاط في العلم
وأخذ للجود في الدين.

مر على أوروبا من أدوار الظلم والظلمات ما سجل لنا التاريخ من آثارها في الأمم
الغربية ما يصح أن يكون عبرة همجة وذكرى سوء. وذلك في الغالب يرجع إلى
عوامل ثلاثة كانت علة العلل لما نجم عنه من سقوط وصعود: الملوك ورجال الكنيسة
والنبلاء. أما النبلاء: فلم يؤثر عنهم في الأعم الأغلب من حالمهم سوى أنهم كانوا
يسعون وراء تأييد نفوذهم ونيل مشتاهتهم وملذوذاتهم بأية طريقة كانت سواء دعا
سعيهم هذا إلى إهراق دماء الشعب وابتزاز أمواله واكتساح الأراضي الشاسعة من
مستعمراته أو إلى مقاومة الملوك إذا آسوا منهم مالا ينطبق على ما يترعون إليه من
حب السلطة والجار الذي كان دينهم وديدهم حتى أتيح لهم نفوذ قوي كان لهم عوناً
في عامة ما تذرعوا به من الذرائع لحفظ سلطتهم وإحرازهم ميزةً على غيرهم من بني
الشر حتى في المحاكم ومسائل القضاء.

وأما الملوك: فإن استشارتهم في الملك وإغراقهم في البذخ والترف جملهم على مبالغتهم
في الإرهاق والعسف وإتيانهم كل امرئ منكر لمطاردة قادة الأفكار من رجال الأمة
فكان الملك يذبح أيامه ولياليه التي كان يجب أن يقضيها فيما يعود على الأمة والوطن
بالمصلحة العامة في اختراع صنوف الخيل والدساتيس قارة وفي أحلام الموبقات مرة

أخرى فمن طنطنة أقداح إلى إزافة ابتسامات بين وصيف وبغا وكثيراً ما كانت الحرب بالباب والسلطان في لعب.

ومما ساعدتهم على عملهم هذا غفلة الشعب واتخاذهم من اعتقاده بالملوك والقباصرة والأقيال والأكاسرة إهم آلهة الأرض والأمرون الناهون في العالمين آله صماء لتنفيذ أعمالهم وأعمالهم. فكان الشعب مغلول اليد والفكر واللسان ليس له من الأمر شي إلا الطاعة العمياء. وفوق هذا كله فإنه كان يرى في هذه الطاعة خيراً يصيبه أو ثوباً يناله. ولم يكن من الشعب الغافل إلا أن وسهمهم بالألقاب السماوية ووصفهم بعامه صفات الربوبية.

وأما رجال الكنية: فكانوا يبالغون أيضاً حفظاً لسلطتهم واستبقاء لعزير جبروتهم في اضطهاد العلم والعلماء. وتم لهم ذلك بما أسدلوه على الأبصار من السجف المبرقشة التي هي ليست سوى خيالات خداع وختل ونفاق وتلاعب قالوا عنها أنها الدين وليست منه في شيء حتى كان منهم أن كانوا يقسمون الممالك ويوزعونها ويخلعون من الملوك من يشاؤون وكانوا كما قال أحمد شبيب بك حكام أوربا المطلقين (ديكتاتور).

غضب مرة الأب (هيلدي بران) على هنري الرابع وأصحابه فحرمهم جميعاً حتى اضطر الإمبراطور هو وزوجته إلى أن يقصدوه ليغفر لهم سيئاتهم فقطع جبال الألب في أيام الشتاء وقد ارتدى قميصاً أبيض أعد للمجرمين ووقف أمام القصر الذي كان جالساً في صدره ذلك الأب ثلاثة أيام وهو يرتجف من صارة القر وأخيراً أذن له بالحضور فتمثل بين يديه وقبل قدميه وهكذا استطاع أن يظهر بظهور العفو.

وإن أعمال رجال الكنيسة في محكمة التفتيش لا تكاد تحصى آثارها من صفحات الوجود فقد كان الغرض من إنشاء هذه المحكمة مقاومة العلم والفلسفة عندما خيف ظهورهما بسعي تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته خصوصاً في جنوب فرنسا وإيطاليا.

وفي مدة ثماني عشرة سنة من سنة ١٤٨١ - ١٤٩٩ حكمت على عشرة آلاف وميتين وعشرين شخصا بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالثقل بعد الت شهر فشهروا وشنقوا وعلى سبعة وتسعين ألفا وثلاثة وعشرين شخصا بعقوبات مختلفة فنذت ثم أحرقت كل توراة بالعربية.

وقد قرر مجمع لاتران سنة ١٥٠٣ أن يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد وطفق الدومينكان يتخذون من ابن رشد ولعنه من ينظر في كلامه شيئا من الصناعة والعبادة. قال الأستاذ الشيخ محمد عبده: لكن ذلك لم يمنع الأمراء وطلاب العلوم من كل طبقة من تلمس الوسائل للوصول إلى شيء من كتبه وتحلية العقول ببعض أفكاره ثم قال: وأوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب في قلوب أهل أوربا ما خيل لكل من يلعب في ذهنه شيء من نور الفكر إذا نظر حوله والتفت وراءه أن رسول الشوم يتبعه وأن السلاسل والأغلال أسبق إلى عنقه ويديه من ورود الفكرة العلمية إليه.

هذا ولا تنس ما كان للحروب والثورات باديء بدء من التأثير السيء في الحركة العلمية في المدارس فالثورة الفرنسية دعت إلى إلغاء دار الفنون الذي ظل يختلف إليها الطلبة منذ زمن مديد. وألغيت بالقرار المؤرخ في ١٠ آذار عام ١٧٩٤ كلية باريس وثلاث وعشرون جامعة في الولايات الأخرى وصودرت أوقافها وأملاكها وإن حروب التتار الشعواء أغارت على الجامعات التي أنشئت في مدينة (نوفوغوردو) و (كرسون) و (موسقو) من بلاد روسيا لما فتحها التتار بحد سيفهم.

ولما دب في بولونيا ديب الحياة وقامت تطالب باسترداد حريتها أنشأت الحكومة الروسية تدرع بكل جليل وقافه لصد هجماتهم وأول ما بدأت به إغلاق الجامعات والمدارس ومن ذلك جامعة (فارسوفيا) الشهيرة التي أغلقت عام ١٨٣٢ وظلت

كذلك موصدة سنين وأعواماً. وإنه وإن أذن للجامعات بعدئذ أن تفتح أبوابها بيد أنه لم يعد يراعى فيها أصول الحرية في التربية والتعليم في حال من الأحوال. وإنك لترى الجامعات والمدارس بعد ما توالى على أوروبا من الأزمات العلمية والفكرية في حالة النزاع والاحتضار إدارة وتعلماً. فأما ما كان من أمر العلم فأما كانت تسلك الخطة التي كانت متبعة في القرون الوسطى وكان المتفكرون على موائد العلم يتصافقون الرتب العلمية على رؤوس الأشهاد ولم يكن من المعلمين الحقيقيين من يستطيع أن يدرّب التلاميذ على أصول التربية الحديثة وإن كان يوجد فإنهم كانوا يتقاضون مرقباً نزريراً يسيراً.

في ذلك الزمن الذي اشتدت فيه الأزمة كانت أوروبا تتمخض بالثورات السياسية والدينية. بيد أنها لم تستطع أن تضع حملها إلا بعد أن نبغ فيها فريق من أهل العلم والأدب فبدأوا يجردون بما في طوقهم وطاقاتهم وراء مكافحة أولئك الخونة المارقين ومنافحتهم في القلم واللسان ليستردوا لبني البشر حقوقهم المغصوبة فكان فيهم العلماء والحكماء والأدباء والقصاصيون والشعراء أمثال نيوتن وباكوتن وبيكارث وميكرو وفولتر ولامارتين وتولستوي ولوك وفيختي وكانت وميرابو ومولير وغيرهم من رجال الإصلاح وكذلك كان بين هؤلاء من رجال الإصلاح الديني كثيرون ومن أشدهم جهاداً وجلاداً لوثيروس زعيم المذهب البروتستانتي في البلاد الأوربية والأميركية جمعاء.

فسد هؤلاء العظماء العجز في تربية الشعب وتعليمه واغتنت النفوس بما تجدد في البلاد من الأوضاع وما ظهر في عالم المطبوعات من المصنفات العلمية والأدبية واكتسبت بما اكتسبته من الحلل القشبية ميلاً خاصاً من القلوب فتهافت الناس عليها وهم في أشد الحاجة إلى ما يححو ما تلتطخ على صفحات الأفكار من الشوائب المبهمة. وكان أول

انقلاب وقع في نظام الأسرة (العائلة) والمعتقدات. وتمثل هذا الانقلاب بأكمل مظاهره في المبادئ والأفكار وعلم الشعب حتى العلم أنه مهضوم الجانب مهض الجناح وأن الملوك والأمراء بأجمعها ليست سوى إجراء له وأنذ نزع استرداد حقوقه بما مازج روحه من قوة الحرية في القرون والعسل.

شعر الملوك ورجال الكية لما آنسوا من الشعب ميلا إلى الإصلاح ورجاله بالخطر الذي يهدد سلطتهم المطلقة فأخذوا يضيفون على مطالبهم الأولى ضروبا من الخنايات والخيانات. ألا وإن قبصر الباستيل والآلة المدعوة المقصلة (كيلوتين) ومحكمة التفتيش وفيافي سيريا وسراي التويليري أعظم شاهد على ما أتوا به من الفظائع والمجانع لناهضة العلماء والحكماء ورجال الإصلاح:

هذا لافوازيه العالم الكيماوي المشهور الذي عني بهذا الفرع من العلم عناية خاصة واكتشف عناصر جديدة لم تكن معروفة من قبل ووضع نواميس عامة أبان فيها ما خفي تعليله على المتقدمين حتى دعي بـ (واضع الكيمياء الجديدة) — هذا الرجل على فضله وعلو كعبه في العلم وخدمته الإنسانية جمعاء حكم عليه بالإعدام وسبق إلى ساحة القتل حيث ذهب ضحية الجهل والغدر والخيانة.

وهذا غاليله العالم الإيطالي الفلكي المشهور عقدت من أجله جلسات متوالية في إيطاليا ضمت أهم رجال الكية وغيرهم وأجمعوا بخروجه عن أوامر الدين في قوله بحركة الأرض ثم حكموا عليه بالإعدام فالتفت إلى الجمهور وهو جذل فرح وقال: هي تدور وفوق ذلك هي كروية.

وكذلك دانتي حكيم إيطاليا وشاعرها أمر الكردينال بورجينو عام ١٣٣٩ بإحراق بعض مؤلفاته في بولونيا جهارا وطلب إخراج جثته من القبر وإحراق عظامها انتقاما من على إلحاده ثم لم تقض على هذه الأحكام عشر سنين حتى شعر الشعب الإيطالي

بمثلة هذا الجدل ففي سنة ١٣٥٠ قررت جمهورية فلورنسا أن تدفع مبلغاً من النقود إلى ابنة له راهبة تدعى بتريس وفي عام ١٣٩٦ قررت أن يبنى له ضريح ويقام له تذكار في فلورنسا على أهم ما زالوا يحاولون بذلك إلى أوائل هذا القرن فابتوا له ضريحاً وقد احتفلوا بافتتاحه في ١٤ تموز عام ١٨٦٥ وهو تذكار مضي ستمائة سنة من يوم ولادته.

ومثله فولتر حكيم الأدباء في فرنسا نظم قصيدة مهاجراً لها لويس الرابع عشر ملك فرنسا فحكّم عليه بالسجن فسجن في الباستيل سنة نظم أثناءها قصيدة سماها التعاقد (ليج) ورواية دعاها (أوديوس) قالوا أنها أحسن ما كتبه من حيث شرح العواطف الحقيقية وذلك عام ١٧١٨ ثم أطلق سراحه بدعوى أنه مريض يحتاج إلى تبديل الهواء في (بلومبيار) فسار وقد عول على أن لا يعود إلى فرنسا ولكن قلمه ثنى عزمه فعاد إلى مثل ذلك فأعيد إلى السجن مهاناً بالضرب واللكم عام ١٧٢٦ فلبث هناك ستة أشهر ثم أطلق سراحه والتجأ إلى إنكلترا لعله يتخلص من دسائس الفرنسيين.

ولقد كتب مقالات فلسفية قيل أنه تعرض فيها للدين والسياسة فأحرفت بأمر مجلس الأمة (البرلمان) واضطر إلى مغادرة باريس خوفاً على حياته وقد ذهب بعضهم إلى أنه ملحد لأن الكهنة لم تأذن بدفنه على العادة المألوفة وإن أحد أبناء أخيه كان رئيساً لدير فأخذ الجثة سراً إلى دير ودفنها في الكنيسة وفي سنة ١٧٩١ نقلت الجثة إلى البانيون مدفن الملوك والعظماء والكبراء.

وكذلك روسو فإنه نال من نبال الطعن والاحتقار ما لا يكاد يحظر على بال وما ذنب هذا الرجل الكبير — كما قال أحد حكماء فرنسا — سوى أنه خالف سنة أهل النظر في عصره وهي اعتمادهم في إصلاح المجتمع الإنساني على الرجال ومخاطبتهم إياهم فيه بأن وجه خطاباً إلى الوالدات والأطفال وهو أمر هداة إليه ما فطر عليه من جودة

الطبع وذكاء القريحة ثم قال: وإن أردت أن أبين لك كيف خدم روسو الأطفال خاصة بما نشره في كتبه من الانتصار لهم قلت أن ذلك إنما كان بما ألقنه تلك الكتب في نفوس الفرنسيين من بذور الثورة وهيأها به لها.

ومثله لوثيروس المصلح الديني الألماني فإنه قام بالدعوة إلى ما صح عن المسيح فطبق ما ورد في الإنجيل ضارباً بتلك الأوهام التي تعلقوا فطفوا بما عرض الحانط. وأول ما ناهضه هو مسألة العفران ولم ير داعياً للأبوة فألغى الرتب الروحانية وشركات الدنيا والقاعدة التي تحول الرهبان عدم الزواج ظهرياً.

وحملته طبيعة الحال على أن يدعي ويثبت مدعاها بأن كنائس الكاثوليك جمعاء تناقض أحكام الدين المسيحي على خط مستقيم وقد دعا الإمبراطور شارل كان المجلس العام في ألمانيا إلى الالتئام فالتهم وطلب المجلس بأكثرية الأصوات إحراق لوثيروس وقد كاد يقع ذلك لولا أنه أقام سنة كاملة في دار نبورج محتفياً عن أعين الرقباء وأتم خلال هذه المدة ترجمة الإنجيل الذي كان شرع بترجمته بادئ بدء وأحدث انقلاباً كبيراً في الأدبيات الإنكليزية والأفكار.

وبلغ بالقسيسين التعصب في إسبانيا على عهد سكيون الثالث مبلغاً هذا حده ولم يكن منهم إلا أن أبعدوا عامة من كانت همهم أريحية الوطنية أيام كان القسم الأعظم من واردات الحكومة مخصصاً لصندوق الكنية. وإن شعور التعصب قد بلغ في أوروبا أشده حتى كان الوباء إذا فشا نسب إلى الموسويين ومن ثم ترى هؤلاء المساكين يستهدفون لضروب الإيذاء والجفاء ما الله به عليم.

وبعد فإن سلطة العلم لا تقاوم ومن قاومها كان خليقاً بكل أذى يلحقه إن لم يكن عاجلاً فآجلاً. وصوت العلم النافع — كما قال رنان — كثيراً ما يتضاءل أمام هجمة المهاجمين وفتحة الدجالين وللعلم صوت متى سكن ضجيج تلك الظواهر يظل ذاك

الصوت يسمع فلا يعود أحد يسمع غيره قال: ومن أجل هذا ترى الخمام العلية على كثرة شكوى أهل الأفكار المحطمة منها فائرة بفضل الغلبة لأنها حارسة حسن الترتيب الحقيقي وهي قليلة ولكنها مفلحة وليس لغير العقل سلطة تبقى.

وإن رجال الإصلاح كلما أغرقوا في الدعوة إليه صموا آذانهم عن جلبه الوشاة والمشائين ولم يحفلوا بما يترن بساحاتهم من الكوارث وإنما ليعدون ما يصيبهم من إهانة واحتقار شرفاً لهم وفخراً كما قال الكتاب الفرنسي: كل قبضة من الوحل تلقى في جهة صاحب صناعة فهي إكليل من الفخار وقد سيق من سيق من هؤلاء المصلحين إلى القتل وعلى شفاههم تلوح ابتسامة السرور ولسان حالهم يقول كما قال لازوروس: نحن نموت الآن لأن الشعب نائم وتقومون أنتم غداً متى استيقظ الشعب.

هذه آثار الأدوار السوداء ونتائجها ولقد كان للأمم الشرقية من آثار مثل هذه الأدوار حظ وافر ولو لم يرل فيهم من القوة بقية ومن الذكاء الذماء لأودت بحياتهم الأدبية منها والمادية. ومما يقوي آمال رجال الإصلاح ويشد عزائمهم ما رأوه من نهضة المشاركة في هذه القرون الأخيرة فقد تناولت الحركة الإصلاحية الشمس المشرقة (اليابان) ففارس فالأمة العثمانية مما يدل على أن الاسعداد كامن في نفوس البشر الترية تظهره والإهمال يخفيه.

ولا بدع إذا قامت تلکم الأقوام بنهضة حديثة اهتزت لها الأرض من أقصاها إلى أقصاها وهم الذين كانت لهم فيما مضى حضارة ضخمة فخمة قضت عليها النواميس الطبيعية بالاندثار والعباء وقبضت من رجال الغرب عني بأمرها فبزوا بما وبرزوا. وما على الأمم الشرقية اليوم إلا أن تطرس على آثار الغربيين في العلم والاجتماع وتأخذ بالأمور المعقولة من حضارتهم ومدنيتهم ليكتب لها عصر مديد وتاريخ مجيد! . .

الرتب والأوسمة

كانت الرتب والأوسمة العامل الأقوى في إفساد الأخلاق على عهد الحكومة الاستبدادية الماضية فاستعملها الظالم ذريعة لرفع من شاء ولو كان وضعاً وتصغير من أراد ولو كان كبيراً وفي تقلد الأوسمة ونيل علام الرتب كم خربت بيوت وشتت شمل أسر و كانت أقل الوسائط إليها وأقرها تناولاً أن يعتمد من يرغب في التشرف بما إلى التجسس على الأحرار وإيجاد السبل لإرهاق من يطالب الحكومة السالفة بإصلاح المختل ومداداة المعتل.

ومن نظر في التاريخ يجد الألقاب عند العرب والإفرنج من بقايا القرون الوسطى قرون المهمجية والانحلال. فمنشأوها عند العرب كما قال ابن الحاج في المدخل الترك فيأفهم لما تغلبوا على الخلافة تسبوا هذا شمس الدولة وهذا ناصر الدولة وهذا نجم الدولة إلى غير ذلك فتشوقت نفوس بعض العوام ممن ليس له علم بتلك الأسماء لما فيها من العظيم والفخر فلم يجدوا سبيلاً إليها لعدم دخولهم في الدولة فرجعوا إلى أمر الدين فكانوا أول ما حدثت عندهم هذه الأسماء إذا ولد لأحدهم مولود لا يقدر أن يكتبه بفلان الدين إلا بأمر يخرج من السلطنة فكانوا يعطون على ذلك الأموال حتى يسمى ولد أحدهم بفلان الدين فلما أن طال المدى وصار الأمر إلى الترك لم يبق لهم بالتسمية بالدولة معنى إذ أنها قد حصلت لهم فانتقلوا إلى الدين ثم فشا الأمر وزاد حتى رجعوا يسمون أولادهم بغير ما يعطوه على ذلك ثم انتقل إليه بعض من لا علم عنده ثم صار الأمر متعارفاً متعاهداً حتى أنس به العلماء فتواطأوا عليه. قال أبو بكر الخوارزمي:

مالي رأيت بني العباس قد فتحوا ... من الكنى ومن الألقاب أبوابا

ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم ... ما كان يرضى به للحش بوابا

قلّ الدراهم في كفي خليفنا ... هذا فأنفق في الأقوام ألقابا

أما في الغرب فكانت الرتب العلمية والجنسية في القرون الوسطى تباع ببيع العروض والعقار يمنحها الملك لمن يريد من حاشيته أو لمن يرى هو ورجاله أنه قام بخدمة لبلاده وربما ورثها عنه أبناؤه وأحفاده من بعده على نحو ما أصبح أولاد العالم في العهد الأخير في هذه الديار يرثون وظائفه ومقامه كما يرثون أرضه ومتاعه وتطلق عليهم ألقاب هي العجب العجيب وأسماء ما أنزل الله بها من سلطان كان يقال لا جهل الجاهلين أعلم العلماء المحققين وللخالع المارق ناصر السنة والدين.

الرتب على النحو الذي يعهد في الشرق والغرب اليوم لم يكن لها ما يماثلها في الدولة اليونانية ولا الرومانية وغاية ما في الأمر أن الظافر في الألعاب الأولمبية في آثينا كان يذكر بالمحمدة ذكراً يورثه الشرف هو وأهل بلاده وينال جائزة سنوية وكذلك من كتب به النصر على أعداء رومية ولكن لا يرث أبناؤه وأهله ما كان هو أبا عذرتة وداعية مفخرته.

ولما انتظمت حكومات الغرب ألغيت الرتب من معظم الممالك الأوروبية ولا يزال لها أثر في بعضها ولكنه ضئيل لا ينم عن شرف ولا ينسب عن فضيلة ورجع الناس هناك أو كادوا إلى عادة السذاجة التي كانت عليها دولة العرب ثلاثة قرون وأكثر فكان يدعى الكبير باسمه أو بكنته ولم يكن للألقاب سوق معروفة.

كان يراد بالرتب والأوسمة وعلامت الشرف في الأصل تحريك نفوس الناس إلى مباراة بعضهم بعضاً في طلب الكمال والمجد الحقيقي لأن من واجبات الحكومة أن تنشط العامل وتأخذ بيد صاحب الكفاءة ليكون مثلاً صالحاً لغيره والرتب والأوسمة من الأمور التي قد تساعد على هذا الشأن ولكن المتأخرين من أهل الغرب شاهدوا كما شاهد المتأخرون في الشرق أيضاً رداءة تلك الطريقة فأسقطوا بعض تلك الرتب

والأوسمة وبقي غيرها عضواً أثرياً من حكومات القرون الوسطى يدل بأصرح بيان على أن من الصعب جداً على حكومة لها بعض التقاليد وإن كانت غير معقولة أن تنسجها جملة واحدة اللهم إلا إذا كانت كحكومة الولايات المتحدة لم تبني أصول حكومتها على أنقاض غيرها بل جعلت فيها العلم قائداً والعقل مرشداً ورائداً ولذلك تساوى بها العامل الصلوك مع رئيس الجمهورية في الألقاب والتشريف.

قال أحد علماء الفرنسيين: ومن الواجب الاقتصاد في منح الأوسمة والألقاب وأن يتوخى المنعم بها لا يهبها إلا لمن يستحقها ممن لا ينكر عليهم استئثارهم لها أبعد الناس عن معرفة الحقيقة ومن الخطأ الفادح أن يذهب بعضهم إلى أن عدد الراضين يزيد بمضاعفة علامتهم الشرف إذ الأمر بخلاف ذلك وكلما خفضت المطالب والقيود درجة زادت الدعاوي الطويلة العريضة وما أنت بصاحبها في هذا المطلب إلا كأنه يتقاضى حقاً وأمرأً مشروعاً وكلما زاد إعطاء الأوسمة وقعت الحكومات في شر أعمالها فتصح في ذلك بين أمرين ما أن تعطيتها لأناس لأخلاق لهم ولمن لهم علم واقتدار ولكنهم معروفون بالأخلاق السافلة وكلا الحالتين قبيح وأقبح. وما حال الشعب إذ ذاك إلا حال الأطفال في المدرسة يطرحون إلى المكافآت المدرسية ويحرصون عليها أكثر من طموحهم إلى التقدم الحقيقي.

قلنا أن الظافر في الألعاب الأولمبية بأثينة كانت تنظم له الجوائز وكذلك الظافر في البر أو البحر يجازى أحسن الجزاء في رومية ويقلد أوسمة أشبه بأوسمة هذه الأيام علاوة على المكافآت المالية ومنها تيجان للجنود وأكاليل من ورق الزيتون وأكاليل من أعصان البلوط وأسورة وقلائد من الذهب والفضة تناط في الصدور أو في قرون صغيرة تجعل في أطراف الخرد.

ولم تكد ترفع عن الأفواه والأفلام في البلاد العثمانية كمائم الاستداد والحجر هذه السنة حتى قام عقلاء العثمانيين يكتبون في إسقاط الرتب والأوسمة لأن في إسقاطها رفع شأن أرباب الكفاءات وتوعوا لذلك الأساليب وفي مقدمة الكاتيبين المتخرجون من المدرسة الملكية العالية في الأستانة وهي من أرقى مدارس الدولة فقام من تعلموا فيها وفيهم الولاة وكبار العمال وتجردوا عن رتبهم مختارين قائلين أن الرتب من قبيل الامتيازات الشخصية المخلة بقاعدة المساواة وأن البلاد الشوروية لا يجوز أن يكون فيها فريق من الناس محكوماً لفريق آخر من أجل هذه الامتيازات الوهمية التافهة. وبعد فإنه لا أثر لهذه الرتب الشخصية في البلاد المتعدنة ولا وجود لها إلا في بلادنا وفي بلاد إيران على أننا نعد هذه المسألة قد حلت حلاً نهائياً لأن مجلس الأمة مصمم على إلغائها بتاتاً وبما أن آخر الشيء ينه إلى أوائله أحيانا أن نبحث في نبذة من تاريخها ليقى حسرة في قلوب عشاقها المولعين بوضع القصب على الصدور وفوق العمائم.

كان الرومانيون واليونانيون يوجهون المناصب لغير طبقة العسكرية ولكن لا يوجهون عليهم رتباً شخصية. أما العرب فكانت الرتبة عندهم هي الفضيلة والمزية الشخصية وكانوا يوجهون الرتب العسكرية عند الحاجة مؤقتاً.

وإننا إذا تصفحنا التاريخ نرى النبي صلى الله عليه وسلم عين وزيره ورفيقه في الغار أبا بكر الصديق رضي الله عنه جندياً في الجيش الذي عقد لواءه لأسامة بن زيد وكان هذا ابن أمة ولكن خبرته في أمور الحرب وشجاعته أهملته لقيادة جيش فيه مثل أبي بكر الصديق وبنى عمر بن الخطاب عزل خالد بن الوليد وجعله تحت قيادة أبي عبيدة بن الجراح وكان جندياً في جيش خالد بن الوليد لما عهدده عمر في أبي عبيدة من التأني والاحتياط في أمور الحرب.

وأخذت الحكومات في القرون الوسطى بأوروبا على عهد الإقطاعات توجه الرتب والألقاب على الأمورين الملكيين قياساً على رتب الرهبان فرتبة فارس (شغالية) كانت شخصية ولها درجات معينة وليس عند الأوربيين اليوم رتب شخصية توجه بالإهداء بها. كانت الدولة العثمانية في أول أمرها توجه لقب باشا بمعنى الأخ الأكبر على من يخدم الدولة والدين خدماً فائقة ولقب جاويش وآغا على من يخدم خدماً صغيرة ولما أصلحت الأمور العسكرية والملكية والعلمية في زمن السلطان أورخان ومن يليه من السلاطين أحدثت بعض رتب خاصة بالمناصب لا يتجاوز عددها الأربعة وهي (خوجكانلى) و (قهبوجى باشلىق) و (ميرميرانلى) و (الوزارة) ولا يتجاوز أصحاب هذه الترتب السبعين أو الثمانين في الغالب فرتبة الوزارة كانت توجه على الصدر الأعظم وعلى (توقيعى ديوان همايون) وعلى (دفتر دار الشى الأول) يعنى ناظر المالية وتوجه نادراً على عامل الولايات الكبرى المهمة وتعلو أقدار رجال الدولة (خوجكان) و (قهبوجى باش) وتوجه رتبة (الروم إيلي بكلربكي) التي كانت لها صبغة عسكرية على المتخرجين من أصحاب رتبة (ميرميران).

كان لقب (سعادتلو) خاصاً بالسلطان إني عهد سليمان القانوني ويخاطب الصدر رجال الدولة بلقب (عزتلو) ومع هذا كله كانت الرتبة توجه وقتئذ في مقابل خدمة مهمة. وفي سنة ١٢٤٨ أدخل بعض التغيير في الرتب والألقاب رتبة (أوى) مع لقب (سعادتلو) على (كتخدابكي) ناظر الداخلية أو مستشار الصدارة اليوم وعلى (رئيس الكتاب) وهو ناظر الخارجية وعلى ناظر (الضربخانه) وتوجه الرتبة الثانية مع لقب (عزتلو) على (أمين الترسانة) و (أمين دار المدافع) وعلى (الباش جاويش) يعنى ناظر العدلية والضبطية وأمثالهم. والرتبة الثالثة مع لقب (فتوتلو) على أمناء المكوس وبقية رؤساء الأمورين. والرتبة الخامسة مع لقب (جميتلو) على مديري الأقاليم ومخبريها.

وقسمت بعد ذلك التربة الثانية والثالثة إلى قسمين وجه أول منها على رجال الباب العالي والثاني على أرباب اللياقة من مأموري الولايات وقد أهملت منذ ربع قرن فروع الرتبة الثالثة كما أهملت في زماننا رتبة (خواجهكان) و (فهوجي باشي) و (الخامسة). وفي سنة ١٢٥٥ سمي القسم الأول من الثانية متميزاً وقسمت الرتبة الأولى إلى قسمين وسمي القسم الأول (أولى أولي) بالإضافة مع زيادة (حضر نلري) على الألقاب و (المشار إليه) بين العبارات وسمي القسم الثاني (أولى ثانيسي) وبالنظر لتكاثر سواد أصحاب الرتب الأولى وتجاوز عددهم الأربعين شخصاً أحدثت في سنة ١٢٦١ رتبة (بالا) مع لقب (عظوفتلو) ليكون خاصة بالرجال المخلين والممتازين على شرط أن لا يزيد عدد أصحابها على السبعة. اهـ

إسبانيا والعمران العربي

نشر المسير كاباتون ن علماء المشرقيات بحثاً إضافياً في مجلة العالم الإسلامي الباريزية جاء فيه ما تعريبه: كتب لإسبانيا من دون سائر بلاد أوروبا أن تكون مبعث أشعة التمدن الإسلامي وكهف اللغة العربية على حين ليست هذه الشبه الجزيرة متصلة من حيث موقعها الجغرافي بالشرق الإسلامي مباشرة كما هي حال الممالك البلقانية واليونان مثلاً. وأقرب البلاد بها مساساً وأقربها منها حمى بلاد أفريقية التي كانت منذ قرون ثمانية في النشوء الإسلامي فتغلّت إسبانيا مكانة عظمى في تاريخ الإسلام أكثر مما جاور آسيا الصغرى من بلاد الطونة واليونان التي لم تشهد من الإسلام إلا العهد الموغل في التوحش الكثير الفتن القليل المنافع ونعني به عهد الأتراك على حين ذاقّت إسبانيا أجمل عهود الإسلام وأخصبها وأعني به عهد العرب فتأصلت مدينتهم في إسبانيا وأزهرت فيها أي إزهار.

فتح طارق بن زياد وموسى بن نصير إسبانيا من سنة ٧١١ إلى ٧١٤ وكانت مستعدة لهذا الفتح لأن الفرضى كانت رافعة عليها أعلامها فاستولى العرب على عرش تلك البلاد من ملكها رودريك الذي هلك في المعركة وأظهر الأشراف ورجال الدين من الإسبانين من الجبن والندالة شيئاً كثيراً فهربوا من إشبيلية وقرطبة عندما سقطتا في أيدي العرب ولم يفكروا في الدفاع عنها وبلغ بهم الخوف في طليطلة أن بعضهم هرب إلى غاليسيا ومن رجال الدين من لم يقفوا إلا في رومية لأنهم كانوا يخشون على حياتهم وأموالهم على أن حكومة إسبانيا إذ ذاك كانت مكروهة من العيد واليهود لأن هؤلاء كانوا مضطهدين. خدم العيد باديء بدء الدولة الإسبانية قبل دخول العرب ثم قل إخالصهم لما حتى أن قرطبة سلمها للعرب راهب من العيد وتمت على أيديهم خيانات أخرى. وكان اليهود أكثر ضرراً على حكومة إسبانيا الغربية ولا يتأتى تقدير عددهم بالتدقيق بل هم فيما يظهر عنصر مهم للغاية انتشروا في قرطبة وإشبيلية والبيرة وقرطبة وطلطلة وغيرها من المدن ولا سيما لوسنا.

وكان اليهود في الأندلس على جانب عظيم من العنى وحسن معرفة بالتجارة وأرقى علماً من جيرانهم واستحكمت بينهم الصلات حتى أصبحوا حكومة وسط حكومة فخاف الملك ورجال الدين الكاثوليكى من امتداد سلطتهم وأخذوا يضطهدونهم بتحمل شديد فربى الخوف والاضطهاد في نفوسهم البغضاء وحب الانتقام. وفي سنة ٦٩٤ قبل مجيء طارق والعرب بسبع عشرة سنة دبر الإسرائيليون مكيذة بمعاونة قبائل البربر اليهود من أهل إفريقية وكادوا يستولون على زمام المملكة الإسبانية. فاكتشفت المكيذة التي دبروها وأخذ المسيحيون يعاملون الإسرائيليين معاملة العيد الأرقاء وكاد يقضى على العنصر اليهودي عندما بدت طلائع الفاتحين من العرب. اعتبر اليهود العرب مخلصين لهم فاطمأن المسلمون إليهم وأخذوا يعاملونهم معاملة

حلفاء لهم وكلما كان يفتح العرب مدينة يجعلون نصف حاميتها من اليهود والنصف الآخر من المسلمين ولم يستثن من ذلك إلا مدينة مالقة حيث قصر اليهود فلم يتداخلوا في أمرها.

وكان لليهود شأن وأي شأن مع العرب فكان من يناله اضطهاد المسيحيين على أوائل الفتح العربي يدخل في الإسلام ويتحرر من قيود العبودية فمن ثم أصبح اليهود حلفاء المسلمين يتمتعون بأراضيهم وأموالهم وحريتهم في عبادتهم وغدت لهم مكانة في تنظيم شؤون إسبانيا ولاسيما في غرناطة التي ازدهرت بمساعيهم وغدت تسمى في أواخر القرن العاشر مدينة اليهود ثم حدثت م ١٠٦٦ بحجة سنة ١٠٦٦ فقتل فيها من الإسرائيليين أربعة آلاف رجل في غرناطة وحدها.

ولم يكن المسيحيون الأحرار في الأندلس مثل العبيد واليهود من أعوان الفتح العربي بل كانوا خصومه ومع هذا كنت تراهم على حالة حسنة مع الفاتحين معين بحريتهم المذهبية ومحفظين بالقسم الأعظم من كنائسهم وكثير منهم دانوا بالإسلام سياسة أو اعتقاداً لا سيما وقد رأوا المسلمين نالوا النصر المؤزر الباهر. والسبب في تسامح العرب مع نصارى إسبانيا أن مركز العرب كان إلى التقليل وكلمتهم مختلفة وذلك لأن العرب والبربر يكره بعضهم بعضاً. ثم إن العرب بطبيعتهم مفطورون على التسامح الديني وكان النصارى وحدهم يدفعون الجزية حتى إذا أخذوا يدينون بالإسلام فرغت خزائن الحكومة العربية لقلعة الجزيرة الواردة إليها ثم إن المسلمين أخذوا يتزوجون من الإسبانيات اللاتي كن يجملهن أعظم صلة للامتزاج بين الفاتحين وخصومهم.

وكانت تجري على سادات الإسبانيول أحكام الإسلام فيختلطون بأشراف العرب ومن ظل محتفظاً بدينه منهم نسي مبادئه فصار يحجب نساءه كالمسلمين ويقتدي بأزيائهم

وأبنتهم وعاداتهم في مآدبهم ورفاهيتهم وخلاعتهم ويزهد في اللغة اللاتينية ويجتهد في تعلم اللغة العربية وآدابها ويسعى في نيل وظيفة في الجيش الإسلامي أو العلق بخدمة الخليفة أو أحد رجاله.

ولقد كان الفشتاليون والليونيون والنافاريون من سكان إسبانيا المسيحيين يأتون بكثرة للانخراط في خدمة الخليفة المنصور وكان هذا موقفاً بأن حب الكسب هو الذي يحمل هؤلاء على الإخلاص له أكثر من أشرف العرب الطانئين فيجري عليهم لذلك الأرزاق والجرايات الوافرة ويشملهم برعايته. وإذا شجر اختلاف بين مسيحي ومسلم من جنده يعطي الحق غالباً للمسيحي. وكانت أيام الآحاد أيام عطلة بدل الجمع. ولما انقسمت بلاد الأندلس بين الطوائف أمسى ملوك المسيحيين يتزوجون من بنات الأمراء المسلمين فقد تزوج ألفونس السادس برايدة ابنة أمير إشبيلية. وإن إسبانيا على ما كان بين العصرين المسيحي والإسلامي في الأندلس من الاختلاف الذي لا مناص منه قد أصبحت مدة قرنين ونصف أي منذ الفتح العربي إلى زوال الخلافة الأموية (٧٧٤ - ١٠٣١) تحت السلطة العربية والمدنية العربية برضاها لا بالرغم منها وقد مزجت تلك المدينة بالمدينة الإسبانية اللاتينية واليهودية التي كانت هناك قبل الفتح الإسلامي وكان ذلك بفضل العقل العربي.

من الظلم أن يقال أن إسبانيا كانت قبل إغارة العرب عليها في حالة المهجبة فقد كانت المدينة اللاتينية زاهرة فيها بفضل رجال الدين فأصبحت إشبيلية بواسطة أسقفها القديس إيزيدورس مركزاً علمياً قوياً الدعائم لم يقو الفتح العربي على زعزعته وأنقذت مدرسة إشبيلية التقاليد اللاتينية من الحركة الشرقية فأصبحت البيع والأديار محال الاعتقادات والمعارف ولاسيما طليطلة وقرطبة وإشبيلية فكان يدرس فيها علم العروض والآداب اللاتينية مع علم اللاهوت. وعلى الرغم من سعي الأساقفة

انتشرت المدنية العربية بسرعة وكادت تقضي على الوطنية الإسبانية وانحلت تلك المدنية الأصلية حتى ظلت معاهدها من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر مباءة الانحلال والتبث.

دان كثير من الإسبانيين بالإسلام فأخذوا يتناسون أصولهم ويستعربون بحضارتهم وأخلاقهم وأنشؤا يتكلمون بالعربية بفصاحة لا غبار عليها وتكثروا من آداب العرب حتى صار الخلفاء يختارونهم فيما بعد عمالاً لإداراتهم وأمناء لمشورتهم وأسرارهم أي في جميع الوظائف التي تقتضي أن يكون لصاحبها معرفة واسعة باللغة العربية ومتى قبل أحدهم مدنية الفاتحين لا يلبث أن يعترف بأنها أرقى من غيرها.

كانت مدنية العرب في إسبانيا محسوسة في الأمور المادية وذلك بما استعملوه من الوسائط الزراعية لإحصاب الأراضي البور في إسبانيا بالأساليب العلية التي اتخذوها لريها وهي أساليب إن لم تكن اختراع العرب فهم الذين أكملوا نواقصها وأحسنوا استخدامها كما أنهم أسسوا معامل للحزير والجلود والبلور وغزل الصوف والقطن والكتان والقصب وأقاموا ما لا يحصى من البنايات العمومية من مثل الجوامع والحمامات ومنها ما يستدعي إعجاب الأمم بأسرها حتى بعد ثمانية قرون من تأسيسه مثل جامع قرطبة وقصر الحمراء في غرناطة. ثم خدموا العبران بتخطيط المدن الآهلة بالسكان الغنية الرباع التي لم تسترجع بعد الرعب ما كان لها في أيامهم من الحضارة وما برحت أنقاضها وما فيها من جمال رائع وصناعة محكمة ولاسيما في قرطبة وغرناطة شاهدة أبد الدهر بتلك المدنية باعثة على التأسف لزوالها.

نعم إن العرب فاقوا في تقدمهم في شبه جزيرة الأندلس بعلوم الطب والنبات والفلك والطبيعات سواء كان بالعمليات أو بالنظريات فكيف لا يبتزون في علم البلاغة والفلسفة والشعر وهي العلوم التي كان لهم القدح المعلى فيها. وقد اجتذب حب هذه

الحضارة حتى الميحين ومنهم من تناسى الأحقاد والمبادئ وما انقضت ثلاثون سنة على الفتح حتى أصبح الناس ينسخون الكتب اللاتينية بحروف عربية كما كان يفعل اليهود بخطوطهم العربية وما مضى نصف قرن إلا وقد دعت الحال إلى ترجمة التوراة والقوانين الكنسية إلى اللغة العربية ليتمكن رجل الدين أنفسهم من فهمها.

ولقد اتخذ الميحيون اللغة العربية ترجماناً لعواطفهم وقلوبهم حتى شكالغار والقرطبي صديق الشهيد ألوج كما قال دوزي في كتابه تاريخ المسلمين في إسبانيا من أن الميحيين في الأندلس قد أفرطوا في حبهم للعربية حتى صاروا يحبون تلاوة قصائد العرب وقصصهم ويدرسون كتب علماء الإسلام وفلاسفتهم لا ليردوا عليها بل ليحلوا بما منطقتهم. قال وكيف السبيل إلى إيجاد رجل من العامة يقرأ التفاسير اللاتينية على الكتب المقدسة ومن منهم يتدارس الأناجيل والأنبياء والرسل ومن الأسف أن جميع صفار الميحيين الذين اشتهروا بقرائحتهم لا يعرفون غير العربية وآدابها فهم يقرؤون الأسفار العربية ويتدارسونها بنشاط لا مزيد عليه ويقتونها بالأثمان العالية يؤلفون بها خزائن نفيسة ويذكرون في كل مكان أن آداب العربية لما يعجب به وإذا حدثهم بالكتب المسيحية يجيئونك بازدياء أن هذه الكتب غير حرة بالتفاهم. وأي ألم أعظم من أن ينسى الميحيون حتى لغتهم ولا تجد في ألف واحد منهم من يستطيع أن يكتب كتاباً مناسباً باللغة اللاتينية إلى صديق له وأنت إذا كلفت أحدهم أن يكتب بالعربية تجد جمهوراً يعبرون عن أفكارهم بهذه اللغة على صورة بدیعة وقد ينظرون من الشعر العربي ما يفوق بما فيه من الصناعة شعر العرب أنفسهم.

واللوم في قصور الإسبانين عن شأو العرب أن الحضارة الإسبانية اللاتينية قد نضب معينها وذمبت نضارتها على حين كانت الحضارة العربية على أشد نصرتها على عهد

خلفاء بني أمية في الأندلس ولاسيما زمن عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم الثاني وفي أيامهما كان الأمويون في إبان عزهم.

فكان في قرطبة وسكانها نصف مليون نسمة ثلثمائة مجد جامع وأحواض ماء وحدائق وفيها الآكام المزروعة المعروسة والحدايق الأنيقة وعلى نحو فرسخ من قرطبة قصر الملك الزهراء ودائرة الحرم منها تسع ثمانية آلاف امرأة فكانت قرطبة تنازع بغداد الأولية بيهجتها ونضارتها.

وقد عرف عبد الرحمن الثالث أذكى ملوك عهده جناناً وأكثرهم استدارة وأغنائهم وكان في خزائنه عشرون مليون ذهب (كذا) — بسخائه التناهي في اجلاب الشعراء وأرباب الموسيقى ومشاهير العلماء يقتدي في ذلك بأسلافه عامة. وإن المتوسطين من هؤلاء الخلفاء ليدرون النفقات الطائلة على أناس لهم في الإسكندرية والقاهرة ودمشق وبغداد وكل إليهم أن يوقفوه على الحركة العقلية فيبعثون إليه بأهم المصنفات وأجمل الآثار. مثال ذلك أن إمبراطور القسطنطينية لم ير أحسن من أن يهدي مصنفاً بديعاً من ديوز كوريد مكتوباً بالذهب وقد حمله مع راهب عهد إليه بعريه للملك استجلاباً لرضاه.

فاق الحكم الثاني أباه بولعه بالآداب والكتب النادرة فكان يفض قصره بالنساخ والمجلدين والنقاشين وبلغت فهرست كتبه بحسب رواية معاصريه أربعة وأربعين جزءاً وكل جزء عشرون صفحة وقال آخرون أن في كل جزء خمسين صفحة. ولم يكن فيها غير اسم الكتاب ووصفه. وقد قرأ الحكم هذه المصنفات وشرحها وحشاها وعلق عليها تعليقات تدل على طول باعه في تاريخ الأدب العربي. وبذل لأبي الفرج الأصفهاني من علماء العراق خمسة آلاف دينار ليخص الأندلس بتأليفه وهو عبارة عن دائرة معارف حوت أخبار الشعراء والمغنين. وكان العلماء من إسبانيا وغيرها ينهالون

على قصره فيحسن فيه لقاءهم ويفرق عليهم الإحسان واشتهرت كلية قرطبة في العالم بأسره وان لم تكن معروفة بأننا معهد رسمي للخلفاء أكثر من جميع الكليات العربية. وكان عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني يحميان العلماء فيها من تعصب المتطعين في العبادة. فيأتي الجامع الأعظم ألوف من الأندلسيين والأجانب من كل البلاد لاشتهاره بأنه معهد علمي وذلك من مدينة الأستانة إلى جرمانيا حيث كان هروستا بقرطبة وهو فيديره. وفي ذلك الجامع كان أبو بكر بن معاوية القرشي يقريء الحديث النبوي وأبو علي القاسمي البغدادي يملئ أماليه المشهور^{وهو} الغنية بالنكات اللغوية والشعرية المأثورة عن العرب القدماء وابن قوطية أعلم نحوي في عصره يدرس النحو.

ورأى الحكم قبيل وفاته أن من الصعب على من بعده نشر المعارف بين الفقراء فأنشأ فيقرطبة سبعة وعشرين مدرسة ينفق على مدرسيها من ماله. ولئن كانت هذه المدارس الصغرى كالكليات لا تنطبق على ما نريده منها اليوم فكانت المدارس الابتدائية لتعليم القراءة وتفسير بعض آيات من القرآن ومع هذا كانت تشهد بما فطر عليه رعاياه من حب المعارف والتعليم.

وان ذهب الخلافة من الأندلس سنة ١٠٣١ وتقاسمتها بين ملوك الطوائف سواء كانوا من أشرف الأسر العربية أو حذاق البربر لم يقف عثرة في سبيل هذه الحمية بل كان شأن عامة ملوك الطوائف شأن أولئك الأمراء في إيطاليا على زمن النهضة يحاولون أن يبرروا مظالمهم بحمايتهم للعلماء ولاسيما للشعراء الذين كانت آمادهم وأماجهم عند العرب ذات شأن كبير حتى كان أعظم الخلفاء في بغداد ودمشق يحاول أن يسألهم ليسألوه ويحسن إليهم ليمدحوه.

وتقدمت إشبيلية في تلك القصور الخالعة المتحضرة فكان المعتضد ابن عباد ابن القاضي أبي القاسم محمد مؤسس الدولة العبادية من الأمراء الظالمين المهتكين يزرع الورد في

هجامم أعددائه الكثار ويسرح طرفه بالنظر إلى هذه الحديقة ويدمن الخمر ولكنه ينظم الغزل الرقيق ويمنح الأدباء وظل ابنه المعتمد المحبوب الذي هلك في غارة المرابطين أحد المشاهير بنظم الأغاني في الأدب الإسباني العربي وقد أعطى من أجل بيتين فذنين لعبد الجلال ألف دينار. وكان ابن عمار رقيق صباه وحاجه زمناً شاعراً أيضاً ويساوي مولاه بركة الشعر ورشاقته وكانت رومايكا السلطانة المحبوبة التي استولت طول حياتها على عقل المعتمد وقلبه مشهورة ببديعتها وهكذا كانت غاية هؤلاء المفتونين الظرفاء من الحياة أن يصموا ويترفهوا ولو لم يضيفوا إليه محبة الآداب والصنائع الفكرية لكانت حقيرة ومريرة.

ولقد نافست مملكة المرية على صغرها مملكة إشبيلية وكان ابن عباس الوزير الجبار لزهير (١٠٢٨ - ١٠٣٨) يفاخر ببيانه المبرأ من العيوب وما افتناه في خزانة كتبه التي تبلغ أربعمائة ألف مجلد أكثر من مفاخرته بغناء العظيم بالنسبة لعصره. ذكر المعتم الذي طرده المرابطون كما طردوا المعتمد بأنه أحسن الملوك العلماء وأعدلهم في بلاد الأندلس فكان سخاؤه على الشعراء متناهياً حتى وهب ابن شرف قرية برمتها لبيت من الشعر قاله. وكانت قطعة من الشعر أو قصيدة من المدح الرقيق تخطر على ناطقها العطايا. وهو يرغب في سماع الأهاجي ولا سيما إذا دلت على صناعة وخلت من رمية بالخل ولذا كان الأدباء يهرعون إلى قصره ويخدعونه ويبرمونهم بمطالبهم التي لا تطاق فخف إليه في المرية طائفة من الشعراء يتبعهم أناس هاجروا إليه من البلاد الأخرى ومن جعلتهم أبو الوليد النحلي الذي أغدق عليه المعتم عطاياها فضحك منه ولكن المعتم عفا عنه لا بالخط من قدره بل أنه أتبع العفو بالإحسان والإنعام. ومثله ابن شرف وابن أخت غانم من مالقة وهو ابن أخت اللغوي المشهور وغانم غرناطة وابن الحداد من قادش الذي اشتهر بأنه أعظم شاعر أندلسي.

وكان في الأندلس مثل أبي عبيد البكري ابن أحد ملوك الطوائف وهو أعظم جغرافي عربي في إسبانيا وكان له أيضاً حظ وافر من الشعر وله صداقة أكيدة مع المعتصم وكان هذا أو جميع أسرته يتعاطون الشعر ولا سيما ما كان منه في الغزليات والخمريات ومازال غزل أبيه وابنته أم الكرام معروفاً إلى اليوم عند كل من اطلعوا على الآداب العربية.

رسخت قواعد الحضارة العربية منذ القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر وبهرت العقول على ما كان من الفوضى السياسية في جميع إسبانيا الجنوبية بحيث تؤثر تأثيراً شديداً حتى على أعدائها الألداء أي الأمراء النصارى في شمالي إسبانيا. فانتشر هنا استعمال اللغة العربية بكثرة حركة فرسان ليون وأراغون الذين كانوا يذهبون للغزو مع المسلمين. وما كان يراه ملوك نافار وغاليسيا وليون وأراغون من ضرورة الاتحاد مع جيرانهم في الجنوب (العرب) فكانوا يؤدون إليهم الجزية على عهد خلفاء الأندلس وغدا العرب على عهد ألفونس السادس ملك غاليسيا وقشتالة وليون ونافار بعض إقطاعاته فكان في قصر ألفونس السادس ملك أهل الدينين كما كانوا يسمونه أناس من المدققين في اللغة المطلعين كل الاطلاع على دقائق اللسان العربي بحيث تسهل عليهم مكاتبة أمراء الطوائف من المسلمين فقد كان السيد كمبادور يجيد التكلم بالعربية لا فرق بينه وفي العقل والأخلاق وبين مسلمي بلنسية. ولما دخل ألفونس السادس إلى طليطلة سنة ١٠٨٥ وكانت هذه المدينة عاصمة ألوزغوت القديمة قوي نفوذه من وراء الغاية باستيلائه عليها ولم يأت عملاً يصير بشهرتها بالعلوم الإسلامية وفاءً بعهد تعهده في هذا الشأن وكان نقض العهد من المؤلفات في عصره لأن المسيحيين في الشمال ما زالوا متوحشين يتفعمون من الاحتكاك بالعنصر العربي الخط في أخلاقه الراقية بعقله وسار خلفاؤه على قدمه. ناول مدرسة أنشئت في طليطلة أوائل

القرن الحادي عشر هي عربية اشتهر أمرها على عهد ملوك قشتالة أي زمن أبي عبد الله محمد بن عيسى المغامي وأحمد بن عبد الرحمن بن المطهر الأنصاري وغيرهما من الأساتذة ومن هذه المدرسة نشأت تربية الإسبانيين على مناحي العرب. وفي سنة ١١٣٠ أنشأ ريمون رئيس أساقفة طليطلة في هذه المدينة مدرسة للتراجمة وبها رسخت اللغة العربية والأفكار العربية في إسبانيا المسيحية (للبحث صلة).

تاريخ الأمم والملوك

هو أوسع تاريخ عربي أبقته الأيام لصاحبه أبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة عشر وثلاثمائة قال ابن خلكان في ترجمته هو صاحب التفسير الكبير والتاريخ الشهير كان إماماً في فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك وله مصنفات مليحة في فنون عديدة تدل على سعة علمه وغزارة فضله وكان من الأئمة المجتهدين لم يقلد أحداً . . . وكان ثقة في نقله وتاريخه أصح التواريخ وأثبتها.

هذه خلاصة حال هذا العلامة الكبير وقد أصابه ما أصاب كبار العلماء في الإسلام من الحط من شأنه وإيذائه قال ابن الأثير وفي هذه السنة (٣١٠) توفي محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ ببغداد ومولده سنة أربع وعشرين ومائتين ودفن ليلاً بداره لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه فمأراً وادعوا عليه الرفض ثم ادعوا عليه الإلحاد وكان علي بن عيسى يقول والله لو سئل هؤلاء عن معنى الرفض والإلحاد ما عرفوه ولا فهموه هكذا ذكره ابن مسكويه صاحب تجارب الأمم وحاشا ذكر الإمام عن مثل هذه الأشياء وأما ما ذكره من تعصب العامة فليس الأمر كذلك وإنما بعض الحنابلة تعصبوا عليه ووقعوا فيه فتبعهم غيرهم ولذلك سب وهو أن الطبري جمع كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء لم يصف مثله ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل فقيل له في ذلك فقال لم

يكن فقهياً وإنما كان محدثاً فاشتد ذلك على الحنابلة وكانوا لا يحصون كثرة بغداد فشغبوا عليه وقالوا ما أرادوا:

حسدوا الفتي إذ لم ينالوا سعيه ... فالناس أعداء له وخصوم
كضرائر الحساء قلن لوجهها ... حسداً وبغضاً أنه لدميم

وقال الإمام أبو بكر الخطيب كان الطبري أحد أئمة العلماء بحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفة وفضله وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره فكان حافظاً لكتاب الله عارفاً بالقرآآت بصيراً بالمعاني فقيهاً في أحكام القرآن عالماً بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها ناسخها ومنسوخها عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم في الأحكام ومسائل الحلال والحرام خيراً بأيام الناس وأخبارهم وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك والكتاب الذي في التفسير لم يصف مثله وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة وأخبار من أقوال الفقهاء وتفرّد بمسائل حفظت عنه.

وقال ابن خزيمة حين طالع كتاب التفسير للطبري ما أعلم على أديم الأرض أعلم من أبي جعفر ولقد ظلمته الحنابلة وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد الفرغاني بعد أن ذكر تصانيفه وكان أبو جعفر ممن لا تأخذه في الله لومة لأنم ولا يعدل في علمه وتبينه عن حق يلزمه لربه وللمسلمين إلى باطل لرغبة ولا رهبة مع عظيم ما كان يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد وأما أهل الدين والورع غير منكرين علمه وفضله وزهدده وتركه الدنيا مع إقبالها عليه وقناعته بما كان يرد عليه من فرية خلفها له أبود بطرستان يسيرة.

يعد هذا التاريخ من المطولات بل هو أطول وأجمع تاريخ للقرون الأولى الثلاثة وقد كان مؤلفه يريد أن يتوسع فيه أكثر مما توسع حتى عرض على تلاميذه قبل الشروع في

تأليفه أن يريد أن يعلّي عليهم تاريخاً فقالوا له كم يكون حجمه فقال ثلاثون ألف ورقة فقالوا تفتي الأعمار ولا يستوفي مطالعة فقال حسبي الله ماتت المهمم وأملاده في ثلاثة آلاف ورقة كما انتهى إلينا.

فجاء تاريخ ابن جرير مأخذاً للمؤرخين وطالبي التوسع في الوقوف على أخبار القرون الراقية في الأمة وقد كبر حجمه بالأسانيد والروايات على طريقة المحدثين إلا أن الحوادث بادية من خلال سطره تنال بأدق نظر. مثال ذلك ما رواه في الجزء الأول من الكلام على خلق العالم نقلاً عن الإسرائيليات فإنه بعد أن نقل الموضوعات كلها قال ابن صح ما روي عن رسول الله (ص) بحيث يتوهم المطالع قبل أن يصل إلى هذا الكلام أن ما أورده وعني به هو الحقيقة التي شاتبة فيها.

وتاريخ ابن جرير مرتب على السنين مثل تاريخ الكامل لابن الأثير وتاريخ أبي الفداء والمسعودي وغيرهم ومن تطويله في سرد الكوائن يستفيد المطالع أشياء كثيرة فينتفع الكاتب من حسن العبارة وجودة سبكها ويقف على تعابير فصحة قد لا يعرفها وليست مألوفة فهذا العهد والشاعر يعلم ضرورياً من الشعر والمقاطع على اختلاف العصور خصوصاً والشعر كله مشكول كما شكلت الآيات القرآنية والكلمات التي ربما تلتبس بل يستفيد الجندي كيفية تعبئة الجيوش في تلك الأعصر ويتعلم المكابد والباحث في الاجتماع يقع على فوائد مهمة.

وفي هذا الكتاب قصائد نظمت على البديهة لشعراء مشهورين وغيرهم ومقاطع قيلت في المناسبة وأنشئت بدواع خاصة وفيه رسائل الخلفاء لعماهم ورسائل العمال لخلفائهم ومعظمها في الغاية إيجازاً وبياناً بنسج معلم البيان والخطابة والشعر على منوالها وفيه من الحوادث كمقتل الحسين وشيعته مثلاً ما لوجود لكان قصصاً تاريخية حماسية فمن ذلك كلام لحيان بن ظبيان أحد زعماء الخوارج قاله لأصحابه: إنه والله ما

يقي على الدمر باق وما تلبث الليالي والأيام والسنون والشهور على ابن آدم حتى تذيبه الموت فيفارق الإخوان الصالحين ويدع الدنيا التي لا يبكي عليها إلا العجزة ولم ترل ضارة لمن كانت له همماً وشجناً فانصرفوا بنا رحمكم الله إلى مصرنا فلنأت إخواننا فلندعهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإلى جهاد الأحزاب فإنه لا عذر لنا في القعود وولاتنا ظلمة وسنة الهدى متروكة وثأرنا الذين قتلوا إخواننا في المجالس آمنون فإن يظفرونا الله بهم نعهد بعد إلى التي هي أهدي وأرضى وأقوم ويشفي الله بذلك صدور قوم مؤمنون وإن نقتل فإن في مفارقة الظالمين راحة لنا ولنا بأسلافنا أسوة.

وقال زياد لما استعمله معاوية على البصرة وخراسان وسجستان والهند والبحرين وعمان فقدم البصرة سنة ٦٥ والفسق بالبصرة ظاهر فاش فخطب خطبة بترأى لم يحمد الله فيها وقيل بل حمد الله فقال: الحمد لله على أفضاله وإحسانه ونسأله المزيد من نعمه اللهم كما رزقتنا نعماً فألهمنا شكراً على نعمتك علينا أما بعد فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والفجر الموقد لأهله النار الباقي عليهم سعيرها ما يأتي سفهاؤكم ويشتمل عليه حكماؤكم من الأمور العظام يثبت فيها الصغير ولا يتحاشى منها الكبير كان لم تصعوا بآي الله ولم تقرؤا كتاب الله ولم تصعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تصعوا به من ترككم هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوقة في النهار المبصر والعدد غير قليل ألم تكن منكم همة تمنع الغرابة عن دبح الليل وغارة النهار فربتم القرابة وباعدتم الدين تعتذرون بغير العذر وتغفون على المختلس كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صبح من لا يخاف عقاباً ولا

يرجو معاداً ما أنتم بالحكماء ولقد أتبعتم السفهاء ولم يزل بهم ما ترون من قيامكم
دوهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الريب حرم
عليّ اللعاب والشراب أسويها بأرض هدماً وإحراقاً إني رأيت آخر هذه الأمور لا يصلح
إلا بما صلح أوله لين في غير ضعف وشدة في غير جبرية وعنف وإني أقسم بالله لأخذن
الوئي بالوئي والمقيم بالطاعن والمقبل بالمدير والصحيح منكم بالسقيم حتى يلقي الرجل
منكم أحاد فيقول انج سعد فقد هلك سعيد أو تقم في قناتكم أن كذبة المنبر تبقى
مشهورة فإذا تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي من بيت منكم فأنا ضامن لما
ذهب له إياي ودخ الليل فإني لا أوتى بمدخ إلا سفكت دمه وقد أجلكم في ذلك
بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إلي وإياي ودعوى الجاهلية فإني لا أجد أحداً دعا بها
إلا قطعت لسانه وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق
قوماً غرقته ومن حرق علي قوم حرقناه ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ومن نبش قبراً
دفنته حياً فكفوا عني أيديكم وألتكم أكف يدي وأذاي لا يظهر من أحد منكم
خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه وقد كانت بيني وبين أقوام أحن فجعلت ذلك
دبر أذني وتحت قدمي فمن كان منكم محسناً فليردد إحساناً ومن كان مسياً فليترع
عن إساءته إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم
أهتك له سراً حتى يدي في صفحته فإذا فعل لم أناظره فاستأنفوا أموركم وأعينوا علي
أنفكم فرب مبتس بقدمونا سيسر ومسورر بقدمونا سيبتس. أيها الناس إنا أصبحنا
لكم ساسة وعنكم ذادة نسوسكم بسطان الله الذي أعطانا ونذود عنكم بفيء الله
الذي حولنا فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحيينا ولكم علينا العدل فيما ولنا
فاستوجبوا عدلنا وفيتنا بمناصحتكم واعلموا أي مهما قصرت عنه فإني لا أقصر عن
ثلث لست محتجياً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارق بليل ولا حابساً رزقاً ولا

عطاءً عن أبيانه ولا مجبراً لكم بعثاً فادعوا الله بالصالح لأنتمكم فإنهم ساستكم المؤذبون لكم وكهفكم الذي إليه تأوون ومتى تصلحوا يصلحوا ولا تشربوا قلوبكم بعضهم فيشند لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم كان شراً لكم أسأل الله أن يعين كلاً على كل وإذا رأيصوبي أنفذ فيكم الأمر فانفذوه علي أذلاله وأيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرئ، منكم أن يكون من صرعاي امـ.

نقلت هذه الخطبة على طولها لأنها مرآة ذلك الزمان وعلامة على استحكام أزمة الأحكام في رقاب الأمة ولأن فيها من الشدة واللين والفتى في أساليب التأثير ما لا يتسنى فو مثله اليوم إلا لأناس من رجال الغرب من مرونا على الخطابة ودرّبوا عليها فكانت ملكة البيان فيهم طبيعة هذا فضلاً عما حوت من البلاغة والفصاحة. وزياد هو الذي وطد الملك لمعاوية ويزيد وقتل الحسين واشتد في استئصال شأفته وكان يقول لو ضاع جبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه وكتب خمسمائة من مئخة أهل البصرة في صحبته فرزقهم ما بين الثلاثمائة إلى الخمسمائة فقال فيه حارثة بن بدر الغدائي:

ألا من مبلغ عني زياداً ... فنعم أخو الخليفة والأميرُ
فأنت إمام معدلة وقصد ... وحزم حين يحضرك الأمور
أخوك هليفة الله بن حرب ... وأنت وزيره نعم الوزير
تصيب علي الهوى منه ويأتي ... محبك ما يحن لنا الضمير
بأمر الله منصوراً معان ... إذا جار الرعية لا تجور
يدرُّ على يدك لما أرادوا ... من الدنيا لهم حلب غزيرُ
وتقسم بالسواء فلا غني ... لضمير يشتكك ولا م فقير

و كنت حياً و جئت على زمان ... حيث ظاهر فيه شرور
 تقاسمت الرجال به هواها ... فما تخفي ضغانتها الصدور
 وخاف الحاضرون وكل بادٍ ... يقيم على المخافة أو يسير
 فلما قام سيفُ الله فيهم ... زياد قام أبليج مستير
 قروي لا من الحدثان غزًى ... ولا جزع ولا فان كبير

ومما ورد فيه من الشعر وهو ما نورد مثلاً ما قالته هند ابنة زيد بن محرمة الأنصارية
 وكانت تشيع ترثي حجر بن عدي من زعماء الشيعة وقد قتله معاوية بواسطة عامله
 زياد.

ترفع أيها القمر النير ... تبصر هل ترى حجراً يسير
 يسير معاوية بن حرب ... ليقتله كما زعم الأمير
 تجبرت الجباير بعد حجر ... وطاب لها الخورنق والسدير
 وأصبحت البلاد لها محولاً ... كأن لم يحيا مزناً مطير
 ألا يا حجر حجر بني عدي ... تلفتك السلامة والسرور
 أخاف عليك ما أردى عدياً ... وشيخاً له في دمشق له زئير
 يرى قتل الخيار عليه حقاً ... له من شر أمته وزير
 إلا يا ليت حجراً مات موتاً ... ولم ينحر كما نحر البعير
 فإن يهلك بكل زعيم قوم ... من الدنيا إلى هلك يصير

ومن خطب الحسين خطبة خطبها بأصحابه لما أحيط به وقام أصحابه يدعونه للمطالبة
 بحقه قال: أيها الناس إن رسول الله (ص) قال من رأى سلطاناً جائراً متحلاً لحرم الله
 ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله (ص) يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فسلم
 يعير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله ألا وإن هؤلاء قد لزموا

طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمان وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا
بالفيء وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله وأنا أحنّ من غير وقد أتني كتبكم وقدمت
عليّ رسلكم بعثكم أنكم لا تلموني ولا تخذلوني فإن تمتم عليّ بيعتكم نصيوا
رشدكم فأنا الحسين ابن علي وابن فاطمة بنت رسول الله (ص) نفسي مع أنفسكم
وأهلي مع أهلكم فلکم في أسوة وإن لم تفعلوا أو نقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من
أعناقكم فلعمري ما هي لكم بنكر لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم والمغرور
من اغتر بكم فحظكم أخطاتم ونصيكم منعم ومن نكث فإنا ينكث على نفسه
وسيعني الله عنكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ومن جملة فوائده ما ذكره في حوادث سنة ٧١ أن عبد الملك بن مروان لما قتل مصعباً
ودخل الكوفة أمر بطعام كثير فصنع وأمر به إلى الخورنق وأذن إذناً عاماً فدخل الناس
فأخذوا مجالسهم فدحل عمرو ابن حرث المخزومي فقال إني وعلى سريري فأجلسه
معه ثم قال أيّ الطعام أكلت أحبّ إليك وأشهى عندك قال عناق حمراء قد أجيد
تليحها وأحکم نضجها قال: ما صنعت شيئاً فأين أنت من عمروس راضع قد أجيد
سمطه وأحکم نضجه اختلجت إليك فأتبعها يده غذي بشر يجين من لبن وسمن ثم
جاءت الموائد فأكلوا فقال عبد الملك بن مروان ما ألد عيشنا لو أن شيئاً يدوم ولكننا
كما قال الأول:

وكل جديد يا أميم إني بلى ... وكل امريء يوماً يصير إني كان

فلما فرغ من الطعام طاف عبد الملك في القصر يقول لعمرو بن حرث لمن هذا البيت
ومن بنى هذا البيت وعمرو يجرد فقال عبد الملك:

وكل جديد يا أميم إني بلى ... وكل امريء يوماً يصير إني كان

ثم أتى فاستلقى وقال:

إعمل على مهل فإنك ميت ... واكدح لنفسك أيها الإنسان
فكان ما قد كان لم يك إذ مضى ... وكان ما هو كائن قد كان
ومن فوائده سأل المهدي يوماً كاتبه أبا عبيد الله بن زياد بن أبي ليلي عن أشعار العرب
فصنفها له فقال أحكمها قول طرفة بن العبد:

أرى قبر نحامٍ بحيلٍ بماله ... كقبر غوي في البطالة مفسد
ترى جثوتين من ترابٍ عليهما ... صفائح صم من صفيح مصمد
أرى الموت يعنام الكرام ويصطفي ... عقيلة مآل الفاحش المتشدد
أرى العيش كترًا ناقصاً كل ليلة ... وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعبرك أن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطول المرخي وثيابه باليد

وقوله:

وقد أرانا همَّ صاحبه ... لو أن شيئاً إذا ما فإما رجعا
وكان شيء إلى شيءٍ نفرقه ... دهر بكر على تفريق ما جمعا

وقول لبيب:

ألا تسألان المرء ماذا يحاول ... إنحب فيقضي أم ضلال وباطل
ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... ومل نعيم لا محالة زائل
أرى الناس لا يدرون قدر أمرهم ... بل كلُّ ذي رأي إلى الله واصل
وكقول النابغة الجعدي:

وقد طال عهدي بالشباب وأمله ... ولاقيت روعات تشيب النواصيا
فلم أجد الإخوان إلا صحابة ... ولم أجد الأهلين إلا مثاويا
ألم تعلمي أن قدرزنت محارباً ... فما لك منه اليوم شيئاً ولا ليا

وكقول هدبة بن خشرم:

ولست بمفراح إذا الدهر سرّني ... ولا جازع من صرفه المتقلب
 ولا أبتغي الشر والشر تاركي ... ولكن متى أهمل على الشر أركب
 وما يعرف الأقوام للدهر حقه ... وما الدهر مما يكرهون بمحبت
 وللهدر في أهل الفتى وتلاده ... نصيب كحز الجازر المشعب
 وكقول زيادة بن زيد وتمثل عبد الملك بن مروان:

تذكر عن شحط أميمة فأرعوى ... لما بعد إكتار وطول نحيب
 وإن امرأ قد جرب الدهر لم يخف ... تقلب عصره لغير لبيب
 هل الدهر والأيام إلا كما ترى ... رزينة آل أو فراق حبيب
 وكلُّ الذي يأتي فأنت نسيه ... ولست لشيء ذاهب بنسيب
 وليس بعيداً ما يجيء كمنقب ... ولا ما مضى من مفرح بقريب
 وكقول ابن مقبل:

رأت بدل الشباب بكت له ... والشيب أردل هذه الأبدان
 والناس همهم الحياة ولا أرى ... طول الخيرة يزيد غير خيال
 وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ... ذخراً يكون كصالح الأعمال

كتب سفيان بن أبي العالية أحد قواد الحجاج وكان بعث به لقتال بعض أعدائه: أما
 بعد فإني أخبر الأمير أصلحه الله أي اتبعت هذه المارقة حتى لحقتهم بخانقين فقتلتهم
 فضرب الله وجوههم ونصرنا عليهم فبينما نحن كذلك إذا أتاهم قوم كانوا غياً عنهم
 فحملوا على الناس فهزموهم فزلت في رجال من أهل الدين والصر فقاتلتهم حتى
 ضررت بين القتلى فحصلت مرتناً فأني بي بأول مهروذ فيها أنا بما والجد الذين وجههم
 إلي الأمير وافوا إلا سورة بن أبحر فإنه لم يأتيني ولم يشهد معي حتى إذا ما نزلت بابل
 مهروذ أتاني يقول ما لا أعرف ويعتذر بغير العذر والسلام. فلما قرأ الحجاج الكتاب

قال من صنع كما صنع هذا وأبلى كما أبلى فقد أحسن ثم كتب إليه: أما بعد فقد أحسنت البلاد وقضيت الذي عليك فإذا خف عنك الوجود فأقبل مأجوراً إلى أهلك والسلام. وكتب إلى سورة بن أنجر: أما بعد فيا ابن أم سورة ما كنت خليفاً أن تجريء عليّ ترك عهدي وخذلان جندي فإذا أتاك كتابي فابعث رجلاً ممن معك صلياً إلى الخيل التي بالمدائن فليخب منهم خمس مائة رجل ثم يقدم بهم عليك ثم سر بهم حتى تلقى هذه المارقة واحزم في أمرك وكد عدوك فإن أفضل أمر الحرب حسن المكيدة والسلام.

ومع أن الحجاج معروف بالشدة فاقراً ما يلي تعرف أنه للشدة تارة وللين أخرى: كتب إليه شيب أحد قواده: أما بعد فإني أخبر الأمير أصلحه الله أي خرجت فيمن قبلي من الجند الذي وجهني فيه إلى عدوه وقد كنت حفظت عهد الأمير إليّ ورأيه فيهم فكنت أخرج إليهم إذ رأيت الفرصة وأحس الناس عنهم إذا خشيت الورطة فلم أزل كذلك ولقد أرادني العدو بكل إرادة فلم يصب مني غرة حتى قدم عليّ سعيد بن مجالد رحمة الله عليه ولقد أمرته بالتوعدة ونهته عن العجلة وأمرته أن لا يقاتلهم إلا في جماعة الناس عامة فعصاني وتعجل إليهم في الخيل فأشدت عليه أهل المصرين أي بريء من رأيه الذي رأى وأي لا أهوى ما صنع فمضى فأصيب تجاوز الله عنه ودفع الناس إليّ فتزلت ودعوتهم إليّ ورفعت لهم رايقي وقاتلت حتى صرعت فحملني أصحابي من بين القتلى فما أفقت إلا وأنا على أيديهم على رأس ميل من المعركة فأنا اليوم بالمدائن في جراحة قد يموت الرجل من دونها ويعافى من مثلها فليستل الأمير أصلحه الله عن نصيحتي له ولجنده وعن مكايدي عدوه وعن موقفي يوم البأس فإنه يستين له عن ذلك أي قد صدقته ونصحت له والسلام. فكتب إليه الحجاج أما بعد فقد أتاني كتابك وقرأته وفهمت كل ما ذكرت فيه من أمر سعيد وعجلته إلى عدوه فقد رضيت

عجلته وتوؤدتك فأما عجلته فإنها فضت به إلى الجنة وأما توؤدتك فإنها لم تدع الفرصة إذ أمكت وترك الفرصة إذا لم تمكن حزمً وقد أصبت وأحسنت البلاء وأجرت وأنت عندي من أهل السمع والطاعة والصيحة وقد شخصت إليك حيان بن أنجر ليدأويك ويعالج جراحتك وبعث إليك بالفني درهم فأنفقها في حاجتك وما يتوبك والسلام.

هذه نموذجات من فوائد الكتاب المتع ولو اتسع المقام لأفضنا فيه أكثر مما أفضنا فإن استيعاب الكلام على اثني عشر مجلداً لا يتأتى في بضعة صفحات.

مطبوعات ومخطوطات

الاشتقاق والتعريب

تأليف عبد القادر أفندي المغربي

طبع بـطبعة الهلال بمصر سنة ١٩٠٩ ص ١٤٦

صاحب هذه الرسالة من بلغاء الكتاب ومصنفه هذا يبحث فيما يعرض اللغة العربية من تكاثر كلماتها بواسطة الاشتقاق والتعريب وإن هذا الأخير طبعي في لغتنا وفي غيرها من اللغات وإن استعمال العرب لا يحط من قدر فصاحة الكلام. وقد أفاض في الاشتقاق والقلب والإبدال والنحت وشروط التعريب ومعربات السنة والكلام المولد وأحدث إفاضة أتى فيها ببعض الشواهد على مقصده. فتنبى عليه الشاء الطيب لعنايته بهذا الموضوع وبإلته رجع إلى ما قاله الباحثون في هذا الفن وأستشهد تأييداً لقوله بكلام الباحثين ولاسيما علماء المشرقيات الذين بحثوا أحسن بحث في أصول اللغات لا سيما السامية منها.

تاريخ النصيرية

للميو رني دوسو

هو المستشرق الفرنسي العالم صاحب كتاب لغة الصفا وغيره من المصنفات المفيدة وله جلد على التأليف وأكثر ما يكتب يعلق ببلاد الشام وسكانها قدمائهم ومحدثهم. وقد كتب كتاباً في تاريخ النصرية وديانتهم فظهر له بعد التحقن أقدم شعة إسلامية فسأ قولهُ بعضهُم فرد عليه بأن أصلهم مسيحيون وهذه كانت بين الفريقين نقطة الخلاف.

وصف دوسو بلاد النصرية وهي جبلية يحيط بها من الجنوب نهر الكبير ومن الشرق والشمال نهر العاصي ومن الغرب الساحل وجبل النصرية يمتد من نهر الكبير إلى حوالي صهيون والزاوية التي قيط بين نهر الكبير من الشمال والعاصي يطلق عليها اسم جبل الأكراد والنصرية ضاربون أيضاً في أنطاكية حيث اشتهروا بصناعاتهم وسعة عيشهم. وبين سكان الجبال والسهل من التناقض ما يدهش. ذلك أن قلة فائدة العمل في المقاطعات الجبلية أورثت النصرى الكسل والجهل فعاش من غلة وقتية ومن السلب والنهب على حين غدا في أنطاكية ملاكاً وتاجراً مسعداً لأنواع الصناعات وعلى شيء من العنى وفتح له في مرسين وطرسوس وأذنة أعمالاً رابحة ناجحة. وفي بلاد النصرية بعض قرى للأرمن حوالي القدموس وفي جبل النصرية أيضاً بقايا الإسماعيلية القدماء النازلين اليوم في مصبات وقدموس وماوالاهما.

وهم يكتمون نفوسهم فراراً من الجندية ولذلك لا ثقة بالإحصاء فعددهم مائة وثلاثون ألفاً في سورية ويبلغ عددهم إذا أضيف إليه النازلون في تلك المدن مائة وخمسين ألفاً وهم قلائل إذا نسبوا إلى البلاد التي يتغلونها وهي أوسع مجالاً من سائر ما يشغله الشيع والشعوب الراحلة في سورية. وفي رأي المؤلف أن عددهم أيام ارتفائهم كان عشرة أضعافه اليوم. قال وهم بادية قانسون على الفلح والحراث وقلما يكون المدن دغ عنك أنطاكية وجسر الشغور واللاذقية.

قال وخطب الناس في أصل النصرية حتى ادعى بعضهم أنهم أخلاط من الوطنيين اختلطوا مع الفرنجة في القرن الثاني عشر والثالث عشر فزعموا أن نصري أصله من نصراي وهو اسم تصغير. وهذا رأي رنان وقد رده المسيو دوسو بالبرهان القاطع قائلاً أن الرأي الشائع اليوم في الأندية العلمية أن اسم النصرية أتى من محمد بن نصير ويقول ستانيسلاس كويارد المؤلف المشهور أن الديانة النصرية نشأت كالإسماعيلية في أواخر القرن التاسع على يد الإمام الحادي عشر من الشيعة حسن العسكري وكان مقيماً في سامراء بالقرب من بغداد. فالديانة النصرية كان لها أصل مشابه لديانة الإسماعيلية فدعا وجه الشبه بين الفرقتين إلى أن أخطأ أهل التأليف المسلمين بحزمهم أن الديانتين متحدتان جوهرًا وعرضًا مع أن بينهما آحنًا ومشاكسات.

وقصارى القول فقد فصل المؤلف أحوال هذه الطائفة تفصيلاً شافياً مشفوعاً بأقوال العلماء من مسلمين وإفرنج فذكر فيه اسم مائة وخمسة عشر مؤلفاً ومصدراً ذكرت النصرية فاستقى المؤلف من مواردها ثم أتبعه بفصل في مكنتهم وأصلهم ومنشأهم منذ العهد الروماني إلى أيامنا ثم أشبع الكلام على عاداتهم وأخلاقهم. هكذا علماء الغرب يبحثون في بلادنا فأين هم منا وأين علمائنا من علمائهم فشكراً لفضلهم وبيض أيادهم.

إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب

المعروف بتعجم الأديب أو طبقات الأديب لياقوت الرومي

عني بنسخه وتصحيحه الأستاذ د. س. مرجليوث

طبع بمطبعة هندية بالموسكي بمصر سنة ١٩٠٩ ص ٤٣٨

لناشر هذا الكتاب ومعلق حواشيه الأستاذ مرجليوث من علماء المشرقيات الإنكليز فضل على الآداب بإتياء هذا الكتاب النفيس بعد أن كاد يأتي عليه العفاء كما ثبت

له الفضل بإحياء غيره من آثار العرب وقد توسع ياقوت الرومي صاحب معجم البلدان في ترجمة بعض من خدموا الأدب العربي إلى عهده وذكر من نكاحهم وأخبارهم ومشورهم ونظامهم ما هو مرآة الحياة الاجتماعية والأدبية والعلمية في الأعصار الستة الأولى للإسلام واختصر في تراجم بعضهم على القدر الذي عرف منهم واشتهروا به بين الناس وفي هذا الجزء بقية من أول أسمانهم ألف إلى من أول أسمانهم جيم وعدد المترجمين فيه ١٦١ ومنهم على شهرتهم وخدمتهم للأدب من لم نظفر لهم بترجمة فيما بين أيدينا من كتب الطبقات والتراجم مثل أحمد بن يوسف بن صبيح كاتب المأمون. وبطبع هذا الكتاب ونشره بين الناس تم سلسلة مهمة من سلاسل التاريخ العربي وسيكون كله في ستة أجزاء نشر منهما الآن اثنان. وفق الله القائم بنشرهما وأعاناه على خدمة الفروع التي أخذ نفسه بما لخدمة العلم والآداب.

ديوان رستم

طبع بالمطبعة الأدبية في بيروت

ص ٤٠٠

أسعد أفندي رستم من ولعوا بنظم الشعر الفكاهي العصري وقد أفرد منظوماته في ديوان خاص فجاء مجموعة أدب وظرف وفكاهة. والظاهر أن الناظم توخى في منظوماته الألفاظ العامية ليحكم إيوار النكات والفكاهات ولنا يستعصي فهمه حتى على الطبقة المنحطة من أبناء الأمة على حين أن في صميم اللغة العربية كما علم الناظم من الألفاظ الجزلة المستملحة ما فيه الغناء دون كبير عناء.

رحلة إلى اليمن سنة ١٨٦١

نشرها بالفرنسية الأب أنستاس ماري الكرمللي

طبعت أولاً في مجلة الأنتروبوس (الإنسان) في النمسا

هي رحلة رحلتها الخواجة ميخا يوسف النجار البغدادي إلى اليمن ولقي فيها ما يلاقيه أرباب الرحلات في البلاد الشرقية عادة وهي لا تخلو من فوائد اجتماعية وغيرها في خصائص البلاد والشعوب.

الحرية في الإسلام

تأليف السيد محمد الخضر بن الحسين التونسي

طبعت بالمطبعة التونسية بنهج سوق البلاط بتونس سنة ١٣٢٧ - ١٩٠٩

وعدد صفحاتها ٦٤ ص

هذا الموضوع من أجل الموضوعات المثقفة للعقول ذكر مؤلفه حقيقة الحرية والشورى والمساواة والحرية في الأموال وفي الأعراض وفي الدماء وفي الدين وفي خطاب الأمراء وأجاد في كيفية الاستخراج من الكتاب والسنة وتاريخ السلف والتطبيق على حالة العصر مما دل على عراقة في أحوال العصر وتمكنه من أحكام الشريعة وهو من المدرسين بجامع الزيتونة الأعظم له حظ وافر من الإنشاء والتاريخ.

محاضرات

أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب

باعتبار علاقتها بأوروبا وخصوصاً بإيطاليا للسيور جويدي

طبعت في مجلة الجامعة المصرية أولاً ص ١٠٩

هذه الرسالة في موضوع جليل يكاد يكون بكرة بالنسبة إلينا إلقاء الأستاذ الشيخ المؤلف على طلبة الجامعة المصرية بلغة العرب وهو إيطالي الجنس والمنشأ معدود من أهل الطبقة الأولى بين المستشرقين الأوربيين. وهذه الدروس هي أربعون درساً كلها جعبة فوائد نستدل منها على خدمة العرب لهذه الفنون الجميلة فنشكر له ولأصحاب

مجلة الجامعة المصرية التي تنقل إلينا زبدة دروس العلماء في كلية هي أول مفخر من
مفاخر مصر.

بلاغة الغرب

نحن اليوم في دور مثل صفحة البحر يريد أن لا يترك فروقاً بين أجزاء الناس ولا
مميزات في منازعتهم وأن لا يدع سمواً في الشعوب ولا انخفاضاً. فهو معمل عظيم
الأدوات منوع الآلات يعمل ليل نهار ليرهن للأدوار الغابرة أنه هو أول ما تغلب
بالفعل على إشاعة السوء والإحياء والتعارف وإطراح التباين والتباعد والانقسام.

فالبخار والكهرباء قد قضيا على استئثار القطر الواحد زرعه وضرعه وصنعه وأشركا
أطراف الأرض كلها بالانتفاع مما يخرج له ليه كما حول بنيه التمتع بثمرات الطبيعة
والناس في الأقطار الأخرى لسد حاجتهم.

والطباعة والصحافة كالبخار والكهرباء تنقلان ثمار العقول ونتائج التفكير من أرض
إلى أرض وتشيعانه من شعب إلى شعب كما يتوصل زمنا إلى مآربه من القضاء على
التخالف.

على هذه الطريقة تجري روح العصر في حضارتها ولكن كثيراً ما يكون أمام الباخرة
فيما بين البحر والبحر برزخ وفي وجه القطار والقاطرة فيما بين البر والبر جبل ودون
الطباعة والصحافة في نقل التفكير من دماغ إلى آخر عجمة فرأى القائمون بأمر هذا
المعمل في القديم والحديث أن لا مندوحة لهم من حفر ترعة في البرزخ بين البحرين
ونقب نفق في الجبل بين البرين وفتح منفذ الترجمة بين اللغتين.

وأن الإنسان ليذهل لكثرة ما يراه من تفكيرهم وموازناتهم وحسابهم ومقاييساتهم عند
اختيار البرزخ ليحفروه ترعة والجبل لينقود نفقاً والمصنف أو القطعة لينقلوها من لغة
إلى لغة وعدّ أصحاب الأبواب الاختيار دليلاً على اللب وميزاناً له.

أمامي الآن كتاب (بلاغة الغرب) وهو مجموع ما اختارده محمد أفندي كامل حجاج المصري من منثور الإفرنسية ومنظومها ونقله على العربية مصدراً للقطع بشيء من تاريخ حياة أصحابها وقد جاء فيه نموذج مما كتبه هيكو ولامارتين وألفرد دي موسي وأندرى شينيه ودو فيني وكوبه وروستان ودوده وتيوفيل وغوتيه وكورنيل وراسين. واني أشكر محمد أفندي كامل ولكل من يصرف وقتاً في نقل شيء من العلم والأدب إلى لغتنا وفتح منفذ بيننا وبين جاراتنا من الأمم ولكي أتقدم عليه تسميته الكتاب ببلاغة الغرب في حين أنه لم يرفع لنا فيه الستار إلا عن بعض أدباء الفرنسيين وأدبيات هؤلاء غير أدبيات الألمان والروس والإنكليز. كما أني أعجب كثيراً من إغفاله بالراك وفلوبير وزلا والأخوان غوتكور وغيرهم من زعماء مذهب الحقيقين (ريالزم) وصرفه صفحات الكتاب جزافاً للأدباء الخياليين (رومانتيست) مع أننا في زمان أحوج فيه إلى المبروط من ثريا الخيال المزوق إلى ثرى الحقيقة المريرة وأن يتعلم القصصيون عندنا من زولا والشعراء من كوبه والمؤلفون من فلوبر كيف يصرفون الأشهر الطويلة والليالي الليلية الباردة في أعماق المناجم وزوايا القصور وأطراف المعابد وأبواب الحانات ليقفوا على سرائر طبقات المينة الاجتماعية ويطلعوا الأمة على ويلاتهما وأدوانهما وجروحهما كما هي لاسيما وهم يريدون أن تكون وهم خلف منضداتهم مرتاحون يتلاعبون بالعقول كما تشاء السياسة طوراً ويعشون القراء بما نوحه أهواؤهم تارة.

وفي الكتاب غير اقتضاب تراجم المشاهير وإغفال البحث في مذاهبهم الأدبية تساهل لغوي في المفردات والتراكيب مثل استعمال مرشح والصحيح مسرح وصحية والصواب صحيحة ومواضيع بدل موضوعات وإثباته اسم ألفرد موسي كما يستعمله الفرنج دوسوسيه وقوله مذهب المحققين وأحسن أن نقول مذهب الحقيقين وقوله قبل قطعة الدرس الأخير لألفونس دوده وقد دعاني لكتابة هذا وكان الأولى أن يقول إلى

تعريب هذا وقوله المؤلف الرئيسي وهذا تعبير لا نعرفه العرب وتأنيسه الرأس بقوله رأسه الصلعاء وقوله حارب ضد لويس بونابارت حيث كان يقال ناضل عنه وتكريره كلمة هذا في قوله يتلألاً في كبدها بنور (هذا) المولود الذي اختاره القادر ليقبض على صولجان (هذا) الملك الفخم فما كان (لهذا) الشعب الصارخ إلا أن صمت واستكان لظهور (هذا) المولود.

والكتاب جيد الطبع يقع في مائتي صفحة.

محب الدين الخطيب

كتاب خصائص اللغة العربية

في أصول العربية للإمام أبي الفتح عثمان بن جني. هذا الإمام من أشهر بالإجادة بالتأليف وأشهر مؤلفاته هذا الكتاب وهو كتاب تعرض فيه لأصول العربية على نحو أصول الكلام والفقهاء أبان فيه ما أودعته هذه اللغة من خصائص الحكمة ونيطت به من علامتهم الإتقان والصنعة وقد قال في أثانته: أن هذا الكتاب ليس مبنياً على حديث وجوب الإعراب وإنما هو مقام القول على أوائل أصول هذا الكلام وكيف بديء وإلى م ثمي. وهو كتاب يتسامم ذوو النظر من المتكلمين والفقهاء والمتفلسفين والنحاة والكتاب والمتأديبين تأملاً له والبحث عن مستودعه فقد وجب أن يخاطب كل إنسان منهم بما يعتاده ويأنس به ليكون لهم سهم منه.

وقد ألفه بعد أن أناف عمره على الستين كما أشار إليه عند قوله: ومن ظريف حديث هذا الحاضر أنني كنت منذ زمن طويل رأيت رأياً جمعت فيه بين معنى آية ومعنى قول الشاعر:

و كنت أمشي على رجلين معتدلاً ... فصرت أمشي على أخرى من الشجر

ولم أثبت حينئذ ضشرح حال الجمع بينهما ثقة بحضوره متى استحضرته ثم إني إلى الآن وقد مضى لي ستون أعاني الخاطر وأستمده وأعانيه وأتورده علي أن يسمح لي بما كان رأيته من الجمع بين معنى الآية والبيت به وهو معتاص منأب وصين به غير معط. والكتاب مشتمل على أبواب شتى يصعب إيرادها لكثرتها وهماك شيئاً مما اشتملت عليه بعض الأبواب مما له علاقة بأهل الآداب. ذكر في باب القول على إجماع أهل العربية حتى يكون حجة: اعلم أن إجماع أهل البلدين إنما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده أن لا تخالف المنصوص والمقيس على المنصوص فيما أن لم يعط يده بذلك فلا يكون إجماعهم حجة عليه ثم قال إلا أننا مع هذا الذي رأيناه وسوغنا مرتكبه لا نسمح له بالإقدام على مخالفة الجماعة التي قد طال بحثها وتقدم نظرها وتالت أواخر على أوائل وإعجازاً على كلاكل. . . إلا بعد أن يناهضه إتقاناً وبيانه عرفاناً ولا يخلو إلى سائح خاطره ولا إلى نزوة من نزوات تفكره فإذا هو حذاها على هذا المثال وباشر بانعام تصفحه أضاء الحال أمضى الرأي فيما يريه الله منه غير معاربه ولا غاض من السلف رحمهم الله في شيء منه فإنه إذا فعل ذلك سدد رأيه وشيع خاطره وكان الصواب متته ومن التوفيق مظنة وقد قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ما على الناس شيء أضر من قولهم ما ترك الأول للآخر شيئاً وقال أبو عثمان وإذا قال العالم قولاً متقدماً فللتعلم الاقتداء به والانتصار له والاحتجاج بخلافه إذا وجد إلى ذلك سبيلاً وقال الطائي الكبير:

يقول من تطرق أسماعه ... كم ترك الأول للآخر

وقال في باب الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وأغفلها المعاني: اعلم أن هذا الباب من أشرف فصول العربية وأكرمها وأعلاها وأزهرها وإذا تأملته عرفت منه وبه ما يوثقك وتذهب في الاستحسان كل مذهب بك وذلك أن العرب كما تعني

بألفاظها وتصلحها وتهدبها وتداعبها وتلاحظ إحكامها بالشعر تارة وبالخطب أخرى وبالأسجاع التي تلزمها وتتكلف استمرارها فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم قدراً في نفوسها فأول ذلك عنايتها بلفظها فإنها لما كانت عنوان معانيها وطريقاً إلى إظهار أغراضها ومراميتها أصلحها وبالغرا في تجييدها وتحسينها ليكون ذلك أوقع لها في السمع وأذهب بما في الدلالة على القصد ألا ترى أن المثل إذا اكن مجموعاً لذ لسامعه فحفظه فإذا هو حفظ كان جديراً باسعماله ولو لم يكن مجموعاً لم تأنس النفس به ولا أنفت لمستعمله وإذا لم يكن كذلك لم تحفظه وإذا لم تحفظه لم تطالب أنفسها باسعمال ما وضع له وجيء به من أجله. وقال لنا أبو علي يوماً قال لنا أبو بكر إذا لم تفهموا كلامي فاحفظوه فإنكم إذا حفظتموه (?) وكذلك الشعر النفس أحفظ وإليه أسرع ألا ترى أن الشاعر قد يكون راعياً جليلاً أو عبداً عسيفاً تنو صورته وتنج بهلته فيقول ما يقول من الشعر فلاجل قوله وما يورده عليه من طلاوته وعذوبة مسمعه وما تصير قوله كلما يرجع إليه ويقاس به ألا ترى إلى قول العبد الأسود:

إن كنت عبداً ففسي حرة كرمًا ... أو أسود اللون إني أبيض الخلق

وقول نصيب:

سودت ولم أملك سوادي ونحته ... قبيص من القوهي بيض بنايقه

وقول لآخر:

إني وإن كنت صغيراً سني ... وكان في العين نبو عني

فإن شيطاني أمير الجن ... يذهب بي في الشعر كل فن

حتى يزبل عني التظني

فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها وحموا حواشيها وهذبوها وصلحوا عزوبها وأرهفوها فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه بها وتشريف منها ونظير ذلك إصلاح الوعاء وتخصيه وتكويبه وتقديسه وإنما المغي بذلك منه الاحتياط للموعى وعليه وجوازه بما يعطر نشره فلا يعتر جوهره كما قد عد من المعاني الفاخرة ما قد ثمود وزخرفوه ووشوه وديجوه ولسنا نجد مع ذلك تحته معنى شريفاً بل لا نجد قصداً ولا مقارباً ألا ترى إلى قوله رحمه الله:

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان ما هو ماسح

أخذنا بأطراف الأحاديث بينا ... وسألت بأعناق المطي الأباطح

وقد ترى إلى علو هذا اللفظ وما به وصقاله وتلامح أمحانه ومعناه مع هذا ما تحته وتراد إنما هو لما قرعنا من الحج ركنا الطريق راجعين وتحدثنا على ظهور الإبل ولهذا نظائر كثيرة شريفة الألفاظ رفيعتها مشروفة المعاني خفيضةها قيل هذا الموضوع قد سبق إلى التعليق به من لم ينعم النظر فيه ولا رأى ما رآه القوم منه وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر وخفاء غرض الناطق ثم أفاض في بيان معاني البيتين.

وقال في باب إرادة العرب للأغراض التي نسيها إليهم حدثني المتنبى شاعرنا وما عرفته إلا صادقاً قال كنت عند منصرفي في مصر في جماعة من العرب وأحداهم يتحدث فذكر في كلامه فلاة واسعة فقال يحير فيها الطرف قال آخر منهم بلغته سراً من الجماعة بينه وبينه فيقول يحار يحار أفلا ترى إلى مداية بعضهم إلى بعض وتنبهه إباد على الصواب.

سير العلم والاجتماع

آداب السعادة

كتب رئيس تحرير المجلة الباريزية مقالة في هذا الموضوع قال فيها أن السعادة مادة حياتنا وقائد لها وهي تتربا بأشكال متنوعة وإنا إذا رأينا ما يبذله أهل الأرواح الشريفة من الهمم يتراءى لنا أن رغبتهم في أن يعيشوا في شقاء ولكن إذا أمعنا في استقراء أعمالهم نراهم يرمون إلى نيل سعادة أرقى. الغاية العامة من العلم الأدب والغاية الخاصة تخليص الحقيقة من الحوادث والعواطف. المؤمدين بكل ما فيه للأجيال الغابرة وهذا دين عليه يجب عليه أداؤه لن يأتي بعده وعلى المرء فروض يجب عليه القيام بها نحو الأموات ونحو الأحياء وهذا واجب يتحتم عليه في أعماله وأفكاره فقد علمه الاختبار أن سعادته ليست إلا نتيجة سعادة مشتركة فهو مخلوق على مثال الأجيال السالفة وهو تابع للإنسانية التي تحيط به. إذا عاد المجتمع إلى عهد اللصوصية واختل نظامه فإن سعادة المرء الخاصة تضمحل في السعادة الاجتماعية وكل احتياط صحي يأتيه المرء يفيد المجموع كما أن صحته مناعة بما يقوم به المجموع من أساليب الصحة العامة والأمثلة كثيرة على أن التكافل مشترك والعلاقة مؤكدة بين مصالحنا الخاصة ومصالح المجموع فليس لامرئ حق أن يتمتع بالخيرات التي هي ثمرة عمل الآخرين دون أن يساعد بنفسه وعلى قدر طاقته على رفع منار السعادة وعلم الأمن والسلام.

ليس الأدب أو الأخلاق إلا بعض فكرنا نستطيع أن نصوره أو نقله على الصورة المؤلفة منها عناصره. يقول بعضهم أن الأخلاق غريزية في المرء وليست كسبية ولو صح قولهم لكانت الأديان والتربية لغواً لا فائدة منها ولكان على الناس أن يغلقوا المعابد والمدارس أيضاً. نعم إن السعادة مناعة بشعورنا الأدبي والذكاء والسعادة يسيران معاً على خط متواز يتجلبان أهما متشابهان وهما متخالفان جوهرأً وعرضاً فالذكاء لا يؤثر في السعادة إلا بالواسطة وذلك بتجهيز حياتنا بسلاح ماضٍ وبالتأثير في أخلاقنا وميولنا.

قال أغوست كونت مؤسس الفلسفة الحسية أن كمالنا الأدبي يعينا على سعادتنا الحقيقية مباشرة من دون أدنى ريب أكثر مما يعيدنا غيره. وقال الفيلسوف ديكارث صاحب الفلسفة الحديثة: "كل من عاش عيشة لا يوبخه عليها وجدانه ولم يقصر في القيام بكل ما يراه أحسن (من الفضائل) ينال عن سعيه جزاءً وفاقاً وتواتيه السعادة. قال الكاتب ومضى أدركت الإنسانية أن سعادتنا منا وأنا لسنا سعداء لأن لنا إرادة في السعادة تنهار حولنا ألوف من الأوهام التي تعوقنا عن كمالنا الأدبي وتقف عثرة في سبيل سعادتنا. وما شقاؤنا إلا ثمرة إساءتنا فهم معنى الحياة فنضرب غيرنا دون أن نخطر لنا ببال أن شقاء غيرنا ضار بنا فالحسد مثلاً مصدر النقائص الاجتماعية وهو ضار بنا أنفسنا. والخير والحب وهما منبع سعادة الغير ينفعان من يأتيهما قبل كل الناس. حياة العائلة المؤسسة على الحب والاحترام المتبادل تنفع أعضائها وأي نفع. وأنا حينما التفتنا نرى العبر قائلة بلسان حالها ومقالها بأنه من المتعذر أن نستمتع بسعادة شريفة دائمة دون أن يصنع بها القريبون منها وكلما امتد ميدان حياتنا وشرفت مبادئها وخواتمها يرداد التكافل بالسعادة فقد قال أفلاطون أن السعادة علم فمن عمل الشر فهو ممن لا يعرف الخير وهكذا الحال في السعادة فإن الشقي هو الذي يجهل كيف يقدر أن يكون سعيداً.

التسمم بالتدخين

جرب الدكتور سرج جبرو وسكي تجارب كثيرة لبيان أن التدخين يحدث في جسم الإنسان آثاراً تسمية وذلك بأن حقن الحيوانات تحت الجلد وفي الدم بالنيكوتين وقد اسعمل لذلك جهازاً تمكن بواسطته من أن يضع الأرناب ست أو ثماني ساعات في اليوم في مكان محكم السد يدخل إليه بمضخة دخان اللفافة (سيكاره) فكانت تظهر في غضون الأسبوع الأول على الحيوان آثار القلق ويزيد فيه إفراز الدمع والبصاق وبعد

امتصاص الدخان كان يستوي على الحيوان الضعف والبلادة وتتأقل مشيته وفي الأسابيع التالية تزول هذه الأمارات وتحل محلها قلة القابلية للطعام. وقد مات عند انتهاء الشهرين أرنبان ودل الفحص الجهري (الميكروسكوبي) لقلبهما على تلف الجسم من فعل الدخان على أن الأخرى قاومت خمسة أشهر وظهر فيها فساد الدم ونزل وزنها إلى النصف وبهذا أثبتت تجارب الطيب الموما إليه أن الحيوانات تعناد التدخين ولكن فساد نسج قلب الحيوان معادل لما يحصل في الإنسان.

الاستحمام

قال أحد الباحثين في مجلة الحياة البيئية ما تعريه: يطالب التبرج والزينة أن تصرف العناية في الطهارة خاصة وتكون متناسبة مع السن والمزاج والجنس على حين أن حفظ الصحة يتطلب أن تختلف هذه العناية باختلاف الأمكنة والأزمنة والحرارة. والحمام ألطف جميع ما تقتضيه الزينة من أنواع العناية وأكثرها بساطة وطبيعة فهو الذي يؤثر تأثيراً سريعاً في الصحة. فبالحمام رفاهية لا تنكر مزاياها وذلك لأن المسام إذا فححت بالحمام تسرع حركة الدم وتعمل في الحال في الجلد بأن تترع عنه القشور التي تغطي بشرة جسمنا.

وتختلف تأثيرات الحمام بحسب درجة الحرارة أو البرودة في الجو كما تختلف الاحتياطات عند الخروج باختلاف المناخ وذلك لأن الحرارة تشد الجسم والبرودة على العكس تصيقه.

الحمامات الباردة مقوية ويجب أن يغطس الجسم كله بسرعة وقد يحدث من الدخول في حمام بارد بعض الضرر وذلك عندما يغمس المرء في الماء بالتدريج فتدفع البرودة بالحرارة نحو الأطراف فتصل إلى الدماغ مثلاً. ويقال بوجه عام أن الحمام البارد إذا

نفع الأحداث وقوى بنيتهم فلا يليق بالشيخ ولا بأرباب الصدور النحيفة لأن رد الفعل لا يتم فلا يتأتى أن تعود الحرارة إلا بصعوبة.

إذا أريد الاستحمام بالماء البارد يجب على كل حال أن يكون الجسم مستريحاً والمضم تماماً كل السام ورشح البدن لا يكون كثيراً من المشي. وإذا بلغت الحرارة درجة لطيفة يمكن أن يبقى فيها المرء نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة ولا يجب أن يتجاوز المستحم هذا القدر من الوقت. وعلى المستحم عندما يخرج من الحمام أن يحتاط بتشيف بدنه وذلكه جسمه كله ليرع منه الرطوبة ويرفع عن الجلد الأجزاء الصغيرة التي تستخرج منه بفعل الماء. وإذا شعر بأنه برد ينبغي له في الحال أن يدلك جسمه بماء اليبون أو بعض الأرواح الأخرى وعليه لإعادة الرشح تماماً أن يمرن عضلاته تمريناً خفيفاً.

ومن الحكمة أن يمتنع المستحم عن تناول الطعام حال خروجه من الحمام لأن الحرارة تتقل من وسط الجسم إلى الأطراف فتترك الحواس الماضمة خالية من جزء من القوة اللازمة للقيام بوظائفها.

وإذا ناسبت الحمامات الباردة الدمويين أو السمان من الأشخاص فقد تضر المستعدين للهبزأل. وعلى الجملة فإنها قلما تنفع من عودوا الرخاء والجلوس. ومن الاحتياط أن لا يتحموا كذلك إلا بإشارة الطبيب.

الحمامات الحارة تزيد العرق وإذا قلّ تعيده كما كان وتلين الألياف. والواجب أن يعمل الحمام بحسب الحالة الصحية وإذا أكثر منه يضعف الجسم ويتعب ويعد للزلات.

أما الحمامات الفاترة أو الحارة فلا يقضي لها الاحتياط بقدر الاحتياط للحمامات الباردة والاحتياط فيها مطلوب عند الخروج منها ويحسن بعد الحمام السخن أن يقعد

المراء في فراشه بعد أن يكون قد نشف جسمه بمنشف غير ندية وحارة وذلك لأن ما يحدث أمراضاً كثيرة هو التعرض لفعل الهواء الخارجي.

ومن القواعد التي يجب مراعاتها أن يستريح المستحم قبل الحمام البارد وبعد الحمام السخن والواجب أن يعنى بذلك الجسم عند الخروج من الحمام حتى لا يتضرر الجلد ويتخلص من الذرات القشرية التي أبقاها الاستحمام على الجسم. وإذا لم يسع المراء أن ينام بعد الحمام فلا أقل من أن يمزج جسمه قليلاً فليشعر في الحال بتأثيرات هذا الاحتياط وينتفع الجسم من ذلك أحسن نفع.

تنفع الحمامات البخارية في البلاد التي يشتد بردها في إهاجة الرشح الطيء النادر وضروري في الأقاليم المعتدلة الاستحمام بالماء الفاتر ليزع من البشرة الذرات التي تنبعث من الجسم. وفي الأوقات الرطبة يحسن ذلك الناشف. ولما كان الرشح في البلاد الحارة يكاد يكون متواصلاً فمن الضروري أن تكون الحمامات على درجة أقل من درجة حرارة الجو ليحدث بذلك التوازن في الأخلاط ويسكن هيجانها العادي.

وإذا لم يساعد الحال والمكان على استيفاء شروط الاستحمام فالواجب أن يستعاض عنه بغسل بعض البدن بماء حار أو بارد بحسب الموسم وقد لا تستوفى من هذا الاغتسال الشروط الصحيحة الناشئة من الحمامات ولكنها تكفي في صيانة الجسم.

والأشخاص الذين يعبون أحياناً بما ينهال من الدم على رؤوسهم يجب عليهم أن يستحموا استحماماً تاماً ويغسلوا أرجلهم ويتأتى لهم الاستعاضة عن الأول والثاني بغسل أيديهم بالماء المغلي. وهذا الدواء على سهولته نافع في أمراض الأسنان لا للطاعنين في السن بل لصغار الأولاد.

المحظورات

يحظر عليك أن تضع إصبعك أو طرف مقلتك في عين جارك.

كما يحظر عليك أن تضع إصبعك في أنفك حتى ولو كان يحك.

لا تنظف أمام الناس أنفك ولا أذنك ولا أسنانك ولا أظفرك.

لا تدعس على رجل جارك ولا على ثوب جارتك.

لا تجلس على طرف كرسيك ولا تتر عليه.

لا تعث بمدب ثوبك ولا بأزرارك.

إذا صافحت فلا تصافح بغصع واحد بل بجماع راحتك مفتوحة.

لا تدخل إلى قاعة الاستقبال ومعك مظلتك ولا معطفك ولا مشمعيك.

غلط الشعر

تختلف نخانة الشعر من واحد إلى عشرة من المليمتر إلى أربعين. وقطر خيط الحرير

كما نخرجه الدودة هو نحو خمسة مليم من المليمتر ويمكن أن تحاط الكرة الأرضية

بليرة من خيط العنكبوت كما أن قمحة واحدة من المسك تعطر غرفة مدة عشرين

سنة وفي جمننا ٢ . ٣٠ . ٤٠٠٠ من المسام.

أثقل تمثال

أثقل تمثال من البرونز نجده في بطرسبرج وهو تمثال بطرس الأكبر ثقله زهاء ألف طن.

الطول البشري

تبين من التجارب التي صنعت لاختبار طول قامات الرجال والنساء أن من يولد في

الربيع أو في الشتاء أكبر قامة من يولد في الفصلين الآخرين والبنات الطويلات القامة

يلدن في آب أما البنون فأطولهم قامة من ولدوا في تموز وأصغرهم من ولدوا في تشرين

الثاني.

التفنن في التعليم

ورد في قصة لديكنس أن إحدى المعلمات كانت تكرر على تلميذاتها كلمات برون بريسم بوتاتويس ليمددن شفاههن المنضمت بعضها على بعض ويبدو الظرف على أفواههن. وقد توسعت الآن إحدى العقائل في هذه الطريقة وقامت تدعي أنها تستطيع أن تعيد القيحة من النساء مليحة وأن نصير الملاح أعجوبة الأعاجيب فأست لمدد الغاية في إنكلترا مدرسة أخذ الطالبات ينهلن عليها أهبالاً وقد قسمتها صفوفاً فجعلت صفاً لعليم البنات كيف يلقين نظراتهن الفتانة ويسحرن بما الألباب وصفاً لعليم البنات تحريك أنوفهن تحريكاً جذاباً خلاباً وصفاً لعليم الشفاه على الحركة ومتى أتم الفتيات العليم في هذه الصفوف ينتقلن إلى صف أرقى حيث يعدن نظرة إهمالية على كل ما تعلمن فيأتين فانات ساحرات.

النوم الضروري

كلما أمكن ترك الأولاد ينامون كثيراً كلما كان أنفع لصحتهم. ويؤخذ من البحث الذي تم في بلاد السويد أن الأولاد الذين لا ينامون القدر الكافي من النوم تزيد أمراضهم جزئين من خمسة أجزاء. فمعدل ما ينبغي من النوم للطفل الذي يذهب إلى المدرسة اثنتا عشر ساعة لمن كان في الرابعة من سنه وإحدى عشرة لمن كان في السابعة وتسع ساعات لمن كان بين الرابعة عشرة إلى العشرين.

أرجل الصنيات

كنا نسمع بأن من جمال الفتاة الصينية أن تكون صغيرة الرجلين وأن القوم هناك يستعملون لتصغيرهما قوالب مخصوصة وقد ذكرت الصحف أن حكاهم ولايات كينغ سو وكينغ سي وكينغ هوي وناكان هوي من الولايات الصينية قد أصدروا بياناً يحظرون فيه على النساء أن يعصبن أرجلهن قائلين إن ذلك مما يمس حنان قلب الأم والفتيات يضعن الحياء إذا تكلفن الجمال ويصبحن ضعفات غير قادرات على العمل

ويحسن فقيرات. وقد وعد أولئك الحكام بمكافآت للصينيات اللاتي يعدلن عن تصغير أرجلهن.

أسماء الأقمشة

سميت كثير من الأقمشة في بلاد الإفرنج بأسماء المدن التي حاكتها أول مرة فعندهم نوع من القماش اسمها دماس نسبة لدمشق حيث كان ينسج الحرير منقوشاً بنقوش بارزة. وعندهم قماش اسمه كاز نسبة لغزة في فلسطين وآخر اسمه أندرينوبل نسبة لأدرنة في الروم إيلي والموسلين وهو الشاش الرفيع صنع لأول مرة أيضاً فيمدينة الموصل فنسب إليها والكاليكو قماش صنع أول الأمر في مدينة كالكوت من بلاد الهند فنسب إليها.

انقضاء العالم

نشر أحد علماء الطبيعة مقالة في مدة بقاء الأرض أو انقضاء العالم ومتى صلحت الأرض لسكنى الحيوانات والنباتات فقال أن من الأسهل أبداً السؤال عن هذه الأسئلة ولكن الصعوبة في الإجابة عنها فقد كان النظام الشمسي في البدء عبارة عن كتلة عظيمة من الأبخرة المتأحجة أو منطاداً ضخماً من الغاز حامياً يدور بحركة فوق نفسه. فجمد البرد في الفضاء الغيوم الأصلية وانفصلت السيارات من الأجرام الموجودة في الوسط وأخذت السيارات تبرد على الولاء بقدر أجرامها فيبرد الأصغر ثم الأكبر. وقد طال أمد كل سيارة ونمت على توالي الأزمان فجمدت الأرض وتماسك سطحها السائل وعلى هذه الصورة نشأت القشرة الأرضية.

ويهنا هنا أن نعرف عمر الأرض أو عدد السنين التي مضت على تكونها والأعوام التي تفصل العصر الحالي من العصر الذي ظهرت فيه على سطحها الأحياء الأولى ولا سبل إلى ذلك إلا على وجه التقريب. وإذا كان عمر الأرض مرتبطاً بعمر الشمس

كان من الواجب أن نعلم أولاً الحدود التي يجب أن نحصر فيها وجود الشمس فقد حسب علماء الهندسة كمية الحرارة التي ادخرها تقلص السديم الأول في السيارة الوسطى وحققوا قوة الحرارة الحالية وما يفقد منها كل سنة واستنتجوا من ذلك مقدار الزمن الذي وجدت الشمس فيه. وبحسب ما حسبوا تبين أن الشمس موجودة منذ خمسة وعشرين مليون سنة على الأقل أو منذ أربعين مليون سنة على الأكثر. ورأى الطبيعي نوكمب بحسب النور الحاضر أن الكوكب يصغر إلى نحو النصف من قطره في خمسة ملايين من السنين على أكثر التقدير وأنه بعد عشرة ملايين سنة يكاد يكون له قشرة فيحتمل إذ ذاك أن تصلح الأرض للأحياء على الوجه الذي نعرفها به.

وإذا كان جرم كرتنا الأرضية أصغر من جرم الشمس بـ ٣٥٠٠. ٠٠٠ مرة فظاهر أن الأرض بردت قبل غيرها وثبت لعالم آخر اسمه ويليام طومسون بالتحليل الرياضي أن الأرض جمد سطحها منذ عشرة ملايين من السنين أو منذ خمسة عشر مليوناً على التقدير الأكثر فبرد تاريخ أصل الأحياء على الأرض إلى اثني عشر مليون سنة.

وبالجملة فإن لنا أن نستنتج من هذا أن الأرض موجودة منذ خمسة وعشرين مليون سنة على الأقل وأن الأحياء الأولى التي عاشت على سطحها قد ظهرت منذ اثني عشر مليون سنة والغالب أن الكائنات الحية الحاضرة تنقضي أيامها بعد عشرة أو اثني عشر مليوناً من السنين وعلى هذا فآخر أيام الدنيا بعيدة وبحسب ما تقدم تكون الأرض الآن قد قصت نصف حياتها فمضى اثنا عشر مليوناً من السنين وبقي ما يقرب منها بعد وبذلك نظمنا على مقتل الجنس البشري.

جمال النساء

معيار الجمال في الأمم أذواقها ومصطلحاتها فمن الجمال في أوروبا أن تكون أسنان النساء بيضاء وفي اليابان يؤثرون من اصفرت أسنانهن وفي الهند يصيغنها بالحمرة وفي

بوكارات بالسواد والنساء في غروانلاندا يدهن وجوههن بمادة زرقاء صفراء والتاتاريات مهما بلغن من الجمال الطبيعي يرين أنفسهن بشعات إن لم يبيضن وجوههن على مرأى من الناس على حين ترى الأوربيات إذا وضعن الحمررة على وجوههن يخفين أمره ولا يكدن يظهرنه. وفي فرنسا يفضل من النساء المشوقات القدود وفي البلاد العثمانية يؤثرون السمينات المكتزات كما يفضلون من استدار وجهها. أما الفرنسيين فيفضلون الوجود المستطيلة المناسبة. ويفضل اليونان من النساء من صغرت جبهاتهن أما الفرنسيين فيطلبون أن تكون جبهات النساء عالية مكشوفة. الناس في أوربا يفضلون الشعر الأسود أو الأشقر أو الأسفع ولكن سكان جزائر ماريانا يفضلون من ابيض شعرها من ربات الجمال. وعلى هذا فلا يسر لامرأة أن تنفق الأهم على جمالها لأن ما يراة قوم حسنة قد يراة غيرهم سيئة فسبحان مقسم العقول والأرزاق.

الآثار العربية

أهدى المسيو كورد مانش مكتبة الأمة في باريز مجموعة مؤلفة من ١٥٨ متاباً من المخطوطات العربية والفارسية والتركية وكان أهدى مثلها من المخطوطات والمسكوكات العربية إلى تلك المكتبة نفسها فكتب مجلة العالم الإسلامي مقالة في هذه المناسبة قالت فيها أن هذه المخطوطات لا تروق المشتغلين بالعربية من المشرقين ممن يرون أن المصنفات التاريخية الشائعة هي وحدها تحتوي على بعض الفوائد مدفوعين إلى ذلك بعامل فيهم لها من دون سائر ما خطه أيدي مؤلفي العرب وزاعمين أن ما بقي من الأدبيات الإسلامية عبارة عن أحاديث ملفقة وهذيان ليست حرية بنظر رجل تمكن من الطريقة القويمة في المعارف وإن مثل هذه الكتب لا يقبل عليها ويصرف أوقاته فيها إلا من تلبد ذهنه أو احتل شعوره فإذا كان التاريخ الإسلامي هو م الفروع

المهمة جداً في الآداب الشرقية فإن سائر فروع العلوم كالفقه والنحو (وأكثر مجموعة المسيو كوردمانش منها) ربما لا تقل عنها شأنًا لأنها ليست وحدها التي تصور حالة العقل في الرجال الذين أتوا قبل ثلاثة عشر قرناً من الهجرة النبوية وكيف كانوا يفكرون ويلهجون في مذاهب الأمور الذهنية والروحية.

لا جرم أن المشاغل السياسية منذ بضع سنين ولاسيما منذ قتال موكدن قد قلبت الأفكار الإسلامية ظهراً لبطن وأخذ رجال الإسلام يزينون لأبناء دينهم الرجوع إلى الدروس التي انغمس فيها أجدادهم بحيث كادوا يغرقون وتعزوا عن الحية التي نالتهم بما قرأوا فيها من الأفكار على أن النظر الصحيح يقضي بأن المهندسين الذين مدوا في بادية بلاد العرب خطوط السكة الحديدية من دمشق إلى المدينة قد أتوا بعمل أنفع مما أتى الزمخشري وجميع شراح الكافية لابن الحاجب. إلا أن الأفكار الحديثة توشك أن تؤدي بالإسلام إلى طرق مخالفة للطرق التي سار عليها إلى أوائل القرن الرابع عشر من الهجرة ويمكن أن يكون المجتمع الإسلامي بعد مائة وخمسين سنة وأعني به الجيل المفكر المهذب من المسلمين مخالفاً للمجتمع الذي عاش على عهد عبد الحميد خان الغازي وناصر الدين شاه قاجار كما تختلف نحن معاصر الفرنسيين اليوم عن أجدادنا زمن لويس الخامس عشر وربما كان اختلاف المسلمين أكثر.

كان المسلمون الذين عاشوا في بلاد ما وراء النهر إلى أواخر القرون الوسطى على عهد أخلاف تيمورلنك قد ورثوا التمدن اليوناني وبلغوا بالعلوم إلى درجة عجيبة من الكمال ثم لم يلبثوا أن ضعف أمرهم وتحلوا عن هذا التراث العلمي وانصرفوا جملة إلى الفقه والنحو فكان ذلك مبدأ سقوط الأمم الإسلامية.

ومهما كانت الطرق التي سيجري عليها أهل الإسلام في ظل العلم والدستور اليوم فإفهم ولا جرم يخالفون المسلمين الذين عاشوا في ظل الاستبداد كل المخالفة ولا يتأتى

الآن الوقوف على فكر العالم الإسلامي قبل مضي زمن وتصفح الكتب التي يستخدمونها في تعليم ناشئتهم وطريقة الرجال الذين عاشوا على عهد الخلافة الدينية أو خلافة السلاطين الذين حلوا محل خلفاء بغداد وهكذا فإن هذه الكتب التي تشهد بفضل مؤلفيها وبعنائتهم الفائقة التي بذلوها في وضعها وهي تساوي بأسلوبها وتعليقها أقل مما تساوي بدلالاتها على الحركة العقلية في مدينة كانت الحاكمة المحكمة على العالم زماناً ونعني بما مدنية الإسلام. ومكانة هذه الكتب لا تسقط أبد الدهر حتى ولو أدى الارتقاء العلمي الإسلامي إلى طرحها والاستعاضة عنها بمصنفات تؤلف على غير نسقها وعلى أسلوب يغاير أسلوبها ولا سيما متى انصرفت النفوس عن دراسة علوم اللسان والفقهاء إلى علوم يكون نفعها عملياً ظاهراً.

لا جرم أن علوم المسلمين ودرسها تشبه ما كان لنا منها في عهد الحكومات البائدة وأن من عانوها وأتقنوها إذا تعلموا جميع دقائق النحو العربي وتبحروا في فقه السنة والشيعه لا يتأتى لهم بذلك أن يقفوا على مطالب الحياة الاجتماعية والعالم الخارجي. وبعد فإن كتب النحو العربي التي هي مصنفات تامة في بابها يجب الرجوع إليها إذا أريد التعق في هذه العلوم وفهم فكر العربي وهي تشبه كتبنا التي كانت مستعملة في المدارس قبل إصلاح بور روبان. وربما زهد الملون في الاعتماد على الطريقة القديمة والكتب القديمة في هذه الفنون لأن بعضهم يرى أن الألفية والأجرومية قبلاً تستدعي انتباه ذهن الطلبة وذاكرة فائقة لاختيار طريقة تشبه طريقة الكتب التي نعول عليها في دراسة اللاتينية وغيرها من اللغات وربما لا يمضي وقت طويل إلا وتتحسن طريقة دراسة الآداب العربية كما تحسنت عندنا في الغرب. على أنه لا يعد أن تقل الرغبة في هذه الدروس اللسانية كان درس الفقهية التي كانت الدروس المعول عليها فقط في العهد الماضي ولا سيما في البلاد العثمانية والفارسية ويعتبر القوم علوم الدين واللغة

التي كانت موضوع اهتمام المتفهمة والمتصوفة من علوم الرجعة لأن القائمين عليها أناس كانوا في الجملة مراعاة لمصالحهم أصدق أنصار عروش السلاطين الذين يدعون الخلافة عن الله في الأرض.

وكيفما كان الحال فإنه لا يتأتى الوقوف على الفكر الإسلامي في كتب ألفت على النسق الأوربي وسارت في أسلوبها على نسق الخطط الغربية كما أنك لا تسقط على الفكر الياباني قديماً من مراجعة الترجمات الإنكليزية والفرنسوية التي تعين رعايا ميكادو واليابان من اجتياز أبواب المدراس الحربية في مملكة الشمس المشرقة.

ولا يتيسر درس الحضارة الإسلامية القديمة بغير الرجوع إلى هذه الكتب في الفقه معاملات وعباداته والنحو ومعتقداته. تلك الكتابات يسهلها علماء المشرقيات لأنها على غير أسلوبهم ولأنها من بقايا القرون الوسطى على حين أن نشوء الدروس الذي وقع في الغرب منذ عهد النهضة قد صير الكتب المكتوبة باللاتينية بأقلام أساتذة علم الكلام معقدة غير مفهومة إن لم يصرف فيها المرء وقتاً طويلاً.

وفي المجموعة التي أهداها المستشرق المشار إليه عدة كتب مشهورة منها قطع من القرآن ربما كانت بخط ياقوت المستعصي الخطاط الشهير وقطعة من كشف الرمحشري وقطعة من تفسير القرآن لليضاوي من أوائل القرن الرابع عشر وقطعة من الحديث من القرن الثالث عشر ونسخة قديمة جداً من مقامات الحريري وكتاب في القرآت فارسي وشرح كافية ابن الجاحب بالفارسي.

وقد ظفروا بهذه المجموعة في سمرقند وهي تمثل صورة من صور علم الفقه والكلام عند السارتيين والتاجكيين في بخارى وسمرقند وكشغر وبعبارة أخرى صورة من صور علوم المسلمين في التركستان الرمسي والتركستان الصيني وبما يمثل الناظر حالة المعارف

عند كل من كانوا يعيشون في تلك الأثناء من المسلمين لأن جزءاً كبيراً من الكتب
التألف منها هذه المجموعة قد نسخت هناك.

وليس في هذه المجموعة إلا كتب خاصة بطائفة مهيبة من طوائف المسلمين إلى حد
معلوم والنسخ الحديثة من كتب الفقه والنحو تدل على أن معرفة اللغة العربية التي هي
أساس الدروس الإسلامية هي في أقصى دركات الانحطاط في تركستان على أن هذا
الانحطاط يرد إلى أبعد من ذلك العهد لأنه وجد في عهد التيموريين في الكتب
والمكتوبات على الأحجار من الأغلاط الفادحة ما يستدل منه أن معرفة اللغة العربية
هو أحط من ذلك العهد مما هي عليه اليوم في فارس حيث أصبح طلاب الفقه دع
عنك المجتهدين ولا سيما في النجف وكربلاء أساتذة في أسرار علوم الصرف والنحو.

وهذه النسخ بالإجمال استنسخها أناس لم يعنوا بما حق العناية وليس لهم فيها ذوق حتى
إن بعضها لم يكتبوا عليه اسمه واسم مصنفه جهلهم في الغالب. وهذا الجهل وهذا
الإهمال يكفيان لبيان السقوط المريع الذي أصيب به ذلك الذي يسكن تلك الأقطار
التي كانت فيما غير مهد العلوم والآداب.